

البناء العلمى

المرحلة الثالثة

الفصل الدراسى الثانى

القواعد الحسان فى تفسير آى القرآن

د. فهد بن سعد المقرن

الدرس الأول



بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- **{سيشرع فضيلة الشيخ في هذا الفصل -بإذن الله- في متن "القواعد الحسان في تفسير آي القرآن" لفضيلة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي. فلو تعطونا فضيلة الشيخ مقدمة عن هذا المتن}.**

- هذا الكتاب اسمه "القواعد الحسان في تفسير القرآن" لمؤلفه الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- المتوفى سنة ١٣٧٦ هـ
- وكما هو ظاهرٌ من عنوان المؤلف، فقد جعله في القواعد الحسان في تفسير القرآن، وهي أصولٌ وقواعد لتفسير القرآن الكريم، فمن طالع هذه القواعد وجدَ أنها مُعينةٌ على فهم كلام الله -عزَّ وجلَّ.

- **لماذا ألَّف هذا الكتاب؟**

- الكتاب له سببٌ في التأليف، وهو: إعانة القارئ والمتأمّل على فهم كلام الله -عزَّ وجلَّ-، والاهتداء بهذا الكلام العظيم الذي هو كلام الله -عزَّ وجلَّ- على النَّحو الذي جاء عنه -سبحانه وتعالى.

- ثمرة هذا التأليف، وثمرة ضبط هذه القواعد التي جمعها المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بيَّنها بقوله: **(تفتح للعبد من طرق التفسير، ومنهاج الفهم عن الله -عزَّ وجلَّ)**.

- إذن هي مُعينةٌ لمن يُطالع كلام الله -عزَّ وجلَّ- على أن يفهمه على النحو الصَّحيح، وتجمع له هذه القواعد هذا المتفرق، وتعينه على ضبط هذه القواعد التي يندرج في أفرادها أمور ومفردات وأفراد كثيرة جدًّا، وهذا كما ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مؤلف هذه القواعد سبب ذلك، وهو أن علم التفسير من أهم العلوم، ولهذا قال: **(واعلم أن علم التفسير أجل العلوم على الإطلاق، وأفضلها وأوجبها وأحبها إلى الله)**.

❑ **لماذا كان علم التفسير على هذا النحو؟**

- لأنَّ هذا العلم وسيلة لتدبر وفهم كلام الله -عزَّ وجلَّ-، والله -عزَّ وجلَّ- أنزل هذا الكلام ليُعقَل ويُعلَم ويُعمَل به، فإنَّك إن فهمت هذا الكلام على النَّحو الصَّحيح؛ فإنَّ ثمرَة ذلك أن تعمل بما جاء فيه، ولهذا فإن الله -عزَّ وجلَّ- حَثَّ في مواضع كثيرة من القرآن على تدبُّر القرآن، فقال سبحانه: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤].إذن؛ تدبُّر القرآن بفهم هذه القواعد.

- هذه مقدمات ذكرها الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في بداية هذه القواعد، فذكر القاعدة الأولى، وهي كالتوطئة لِما يأتي بعدها وما يتلوها من القواعد، فعلى سبيل الإجمال لِما ذكره الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ذكر أنَّ ثَمَّ سنن كونية وشرعيَّة لابدَّ من مُراعاتها، هذه السُّنن هي قواعد، فالعلوم لها قواعد، والتفسير له قواعد، وكل الأمور مربوطة بقواعد وضوابط وأصول لابدَّ لكل مَن طلب علمًا أن يُراعي هذه القواعد وهذه الضَّوابط، فلا يأتي الأمر جزافًا، وإنما يأتي الأمر بالطريق الصحيح للدخول إليه، ولهذا قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(كل من سلك طريقاً وعمل عملاً، فعليه أن يراعي ذلك)**، يعني: أن يُراعي هذه السنن.

- قال: وعظم المطلوب يؤكد إحسان البحث عن الطريق،يعني: المطلوب لطالب العلم في التفسير أن يفهم كلام الله -عزَّ وجلَّ- على النحو الذي جاء عنه -سبحانه وتعالى.

- فلابدَّ للإنسان أن يُحسِنَ البحث في الطُّرق التي توصله إلى فهم كلام الله -عزَّ وجلَّ- لأنَّ هذا الفهم هو سبيل لأن يُعقل كلام الله -عزَّ وجلَّ- وأن يُفهَم على الوجه الذي جاء عنه.

- ثم قال الشيخ: **(وفهم القرآن أعظم مطلوب)**، ولا شكَّ أن فهم القرآن من أعظم المطالب؛ لأن القرآن سببٌ للهداية؛ بل هو أعظم أسباب الهداية؛ لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يقول: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾ [الإسراء: ٩]، فمن ابتغى الهدى بغير كلام الله -عزَّ وجلَّ- ضلَّ وخسر.

- فكما ذكرتُ لكم أنَّ الطرق التي تُسلَك لفهم كلام الله -عزَّ وجلَّ- طرق مختلفة، وهذه الطرق لا توصل إلى الفهم الصحيح لكلام الله -عزَّ وجلَّ-، وأقوم طريق هو طريق السلف، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، فهذا الفهم لابدَّ أن يكون من هذه المدرسة -مدرسة الصحابة والتابعين وتابعي التابعين- فهذا المنهج وهذا الطريق هو أقوم طريق، وهذا ما قرر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في القاعدة الأولى ونبَّه إليه.

- ونبه الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- إلى أنَّ طريقة السلف في فهم كلام الله -عزَّ وجلَّ- أنهم إذا قرؤوا عشر آيات لم يتجاوزوها حتَّى يعرفوا ما دلَّت عليه من العلم والعمل.

- ثمرة متابعة منهج السلف -كما قال الشيخ: أنه يجعل طالب العلم يَقوَى فهمه لكلام الله -عزَّ وجلَّ- وتكون عنده البصيرة لفهم كلام الله -عزَّ وجلَّ.

- وكما نبَّه الشيخ أنَّ هذا لا يكفي وحده، فهذا المسلك يحتاج إلى روافد وإلى إعانة تعينه على فهم كلام الله -عزَّ وجلَّ- فمع أنه يسلك هذا المنهج وهذا الطريق إلَّا أنه يحتاج إلى روافد وإعانة لفهم كلام الله -عزَّ وجلَّ.

- ثم ذكر الشيخ أنه يحتاج علوم الآلة، وبخاصَّة علم اللغة العربية -علم النحو والصرف والبلاغة.

- ونبَّه كذلك إلى أنَّه مع علم اللغة العربية يحتاج إلى المعرفة بالآثار والسُّنن، يعني: ما نقل عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ؛ لأن أحسن التفسير هو تفسير كلام الله -عزَّ وجلَّ- بكلامه -سبحانه وتعالى-، ثم تفسيره بكلامِ رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ، ثم تفسير كلامه -سبحانه وتعالى- بأقوال الصحابة وأقوال التابعين.

- وهذا الفهم وهذه المعرفة معينة له في حياته الدنيا، ومن أسباب ثباته على الدين، ومن أسباب فهمه لواقعه الذي يعيشه، ومن أسباب الاهتداء إلى الطريق المستقيم.

- ونبه الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أنه لابدَّ لطالب علم التفسير وقارئ هذه القواعد أن يقرر في قلبه هذه العقيدة، وهي أنَّ القرآن تبيانًا لكل شيء.

- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- القاعدة الثانية.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب)}.

- فنفعها لطالب العلم ولمن يقرأ كلام الله -عزَّ وجلَّ- أنه يحتاج إلى أن ينظر إلى أسباب النزول، وتعقيب سبب النزول عند إيراد معنى الآية يفيد الطالب.

- العبرة بعموم اللفظ، وأن سبب النزول لا يفيد الحصر، مثل آيات سورة المجادلة، المرأة التي جادلت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- وهي خولة مع زوجها أوس بن الصامت، فهذه الآيات نزلت في قضية مُعيَّنة، فهل معنى ذلك أن يكون الحكم خاص بهذا؟

لا: فإن العبر بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

- **لماذا لا تفيد الحصر؟**

قال الشيخ: لأن القرآن أُنزل لهداية الأمة في أول الزمان وآخره.

- وذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أثر لعبد الله بن مسعود "إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ".

- ذكر الشيخ هذا الأثر لأن عبد الله بن مسعود وهو من أئمة الصحابة في التفسير يقول: "إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾". مع أن الخطاب في الآية للصحابة في زمن نزول القرآن، فهم يدخلون في هذا الخطاب دخولًا أوَّليًا، ومع ذلك يقول عبد الله بن مسعود: "فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ". وهذا يدل على أن خطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ شامل للأمَّة، فما أخبر الله -عزَّ وجلَّ- به يشمل أهل الإيمان كلهم، وهكذا في تقرير الأحكام الشرعية.

- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في هذه القاعدة قول الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان:٣٣].

- يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله والقيام بها. والقرآن قد جمع أجل المعاني وأنفعها وأصدقها بأوضح الألفاظ وأحسنها).**

- وهذه الآية عظيمة، قال تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾، وهذا في زمن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- فلا يأتون هذا القرآن ولا بما جاء محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- بمثل يُعارضون به ما جاء عن الله من أحكام إلا جاء الله -عزَّ وجلَّ- بالحق وأحسن من مثلهم، وتفصيلًا لشبهتهم والرد عليها، وهذا في زمن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ.

- **هل الحكم موقوف على زمنه -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ؟**

لا، حتَّى في الأزمنة التي تتلو زمن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ-، زمن الصحابة، زمن التابعين، زمن تابعي التابعين، إلى يومنا هذا؛ فلا يأتي أهل الباطل بشُبهةٍ في مُعارضة الحق إلَّا ستجد في القرآن ما يرد على هذه الشبهة، ولا يأتون بحجَّةٍ يظنونها حجَّة إلا وستجد في القرآن ما يرد عليها.

- ولهذا قرر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- وغيره من أهل العلم أنَّ الالتزام بالقرآن والانتفاع به يشتمل على العلوم كلها، فمن أراد أن يردَّ الباطل فلابدَّ أن ينطلق من كلام الله -عزَّ وجلَّ- أولًا، وستجد في القرآن ما يرد على اليهود والنصارى، وعلى المنافقين والمشبِّهين على الناس في كل قضيةٍ من قضايا الدين والإسلام، الذين يُشككون في صلاحية الإسلام لهذا الزَّمان؛ فكله موجود في كتاب الله -عزَّ وجلَّ.

- وفي عهد النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- نبغت نابغة تُسيء للإسلام، وهم أهل النفاق، فذكر الله -عزَّ وجلَّ- في القرآن آيات كثيرة جدًّا في النفاق وفي شبهات المنافقين، وفي أن بعض أهل الإيمان يتلقون عن أهل النفاق ويُحسنون بهم الظن، وقال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].
- ثم المجادلة مع النصارى في وفد نجران لما جاؤوا إلى النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- في المدينة، فأنزل الله -عزَّ وجلَّ- آيات: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وكذلك المباهلة مع النصارى.
- وطالب العلم يحتاج إلى أن يقرأ كلام الله -عزَّ وجلَّ- وأن يتدبَّره، وأن يستظهر هذا الكلام، وأن يفهمه على الوجه اللائق، حتى يستطيع أن يرد على أهل الباطل.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه.

❑ وقد نص على ذلك أهل الأصول وأهل العربية، واتفق على اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان)}.

- هذه قاعدة، وهي أن (الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق)، يعني لما دلَّت عليه.
- هذه القاعدة متفق عليها، وما بينهم خلاف في أن هذه القاعدة محكَّمة في فهم كلام الله -عزَّ وجلَّ.
- وهنا نحتاج أن نعرف معنى الاستغراق:
  - ➢ الاستغراق لغة: الاستيعاب والشمول، يعني تستوعب كل الأجزاء وتشملها.
  - ➢ وفي الاصطلاح: استيفاء شيء بتمام أجزائه وأفراده، فلا يخرج شيء.
- ثم ذكر المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ- أمثلة على ذلك تجعل هذه القاعدة في ذهنك وأنت تقرأ كلام الله -عزَّ وجلَّ.

❖ **المثال الأول:** الألف واللام الداخلة على الوصف.

- ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ...﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فهنا الألف واللام استغراقيَّة، وتعم كل مسلم وكل مؤمن، وكل خاشع، إلى غير ذلك من الأوصاف.
- والثواب لهم: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فكل من قام بهذا الوصف فثمرة هذا العلم -أو هذه المعرفة- فهو موعود بهذا الفضل من الأولين والآخرين إلى قيام الساعة.

❖ **المثال الثاني:** الألف واللام الاستغراقيَّة الداخلة على اسم الجنس -يعني الجنس الذي يعم أفرادًا.

- قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩- ٢٢] ؛ فكل إنسان هذا وصفه إلَّا مَن استثناه الله -عزَّ وجلَّ-. ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [سورة العصر]، فهو وصف ملازمٌ له، فكل إنسانٍ في خسرٍ إلا من استثناه الله -عزَّ وجلَّ- واتَّصفَ بهذه الصفات فإنه خارجٌ عن هذا الوصف، ووصف الإنسان تجده في القرآن كثير، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ [يونس: ١٢]، تجد بعض المفسرين يعبر عن "الإنسان" هنا بالكافر، فهذا الكافر يدخل دخولًا أوليًّا، ولكنه يعم وصف الإنسان، فالألف واللام تعم كل مَن يدخل في أسماء الأجناس.
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ- أن هذه القاعدة تُرد في فهم معاني أسماء الله -عزَّ وجلَّ-.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ: **(القاعدة الرابعة: إذا وقعت النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط أو الاستفهام دلت على العموم)**}.

- هذه القاعدة الرابعة التي تفيد من يقرأ كلام الله -عزَّ وجلَّ- في فهم كلامه -سبحانه وتعالى.
- قال: **(إذا وقعت النكرة)**، النكرة تخالف المعرفة، والنَّكرة كما عُرفت في الاصطلاح: ما شاعَ في جنسٍ موجودٍ أو مُقدَّرٍ دون تعيينٍ، وهي من ألفاظ العموم، وتكون النكرة في سياق النهي أو النفي أو الشرط.

وذكرنا أن اللفظ العام هو: كل لفظٍ استغرق ما صلح له دفعة واحدة من غير حصر.

- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ- أمثلة:

❖ **المثال الأول**: النكرة في سياق النهي.

- قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

النكرة هنا "شيئًا"، وأداة النهي "لا": فهذا يعم كل أنواع الشرك، فلا تشركوا بالله الشرك الأكبر، والشرك الأصغر، والشرك الخفي؛ فكل هذا يدخل في هذا النهي، فيعمل كل هذه الأنواع؛ لأن النكرة في الآية في سياق النهي، فهي من ألفاظ العموم، فلا يُمكن أن يَستثني أحدٌ شيئًا بأنَّه خارجٌ عن النهي؛ لأن النكرة في سياق النَّهي من ألفاظ العموم.

❖ **المثال الثاني**: النكرة في سياق النَّفي.

- النَّهي غير النَّفي، و"لا" الناهية غير "لا" النافية، ولكل أحكام خاصَّة، ولكنها في العموم معناها واحد، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: ١٩]، يعم كل نفس، يعني: كل نفس ما تملك شيء، ويعم كل مُلك، فلا يُمكن أن يكونَ ثَمَّ مُلكٌ ولا نفع من الإنسان لغيره يوم القيامة، فإن الْمُلك يوم القيامة لله -عزَّ وجلَّ.

❖ **المثال الثالث**: النكرة في سياق الشرط.

- فمن ألفاظ الشرط "إنْ"، قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ [الأنعام: ١٧]، فـ "إنْ" من أدوات الشرط، وهو حرف شرط جازم مبني على السكون لا محل له من الإعراب، كما هو مقرر في لغة العرب.
- النكرة في الآية ﴿بِضُرٍّ﴾، وهذا يعم كل ضر، فإنَّه لا يكشف أي ضرٍّ إلا الله -عزَّ وجلَّ.
- وقوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾، أي: أيَّ خيرٍ، فمن ألفاظ العموم النَّكرة في سياق الشرط.
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ- من هذه الأدوات، في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿نِعْمَةٍ﴾ نكرة في سياق الشرط، فهي من ألفاظ العموم، يعني: أيَّ نعمةٍ وكل النعم من الله -عزَّ وجلَّ- وهو الذي أسداها.
- فـ "ما" اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ.

❖ **المثال الرابع**: النكرة في سياق الاستفهام.

- قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، دخول "مَنْ" هنا يصيرها نصًّا في العموم -كما ذكر أهل العلم- يعني: ليس ثَمَّ خالق غير الله.

إذن؛ النكرة في سياق الاستفهام تفيد العموم، بخاصَّة إذا كانت في سياق الاستفهام الإنكاري.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ: (القاعدة الخامسة: المقرر أن المفرد المضاف يُفيد العموم كما يُفيد ذلك اسم الجمع.**

❑ **فكما أن قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] إلى آخرها يشمل كل أم انتسبت إليها، وإن علت. وكل بنت انتسبت إليك وإن نزلت . إلى آخر المذكورات)}**

✓ هذا هو قول بعض المالكية والحنابلة، وليست قاعدة متفق عليها.

✓ والقول الثاني: أن المفرد المضاف لا يفيد العموم.

- والقول بأن المفرد المضاف يُفيد العموم يترتب عليه ثمرات وفروع، **فمن ثمرات هذه القاعدة فقهيًّا:**

✸ أنه ورد عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- أنه كان يسبِّح بيده، فهنا "يده" مفرد مضاف؛ وعلى القول الأول أنَّه كان -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- يسبح بيديه جميعًا.

✸ كذلك من التطبيقات الفقهيَّة للقاعدة: لو قال رجل: "زوجتي طالق" ولم يُعيِّن، وله أربعُ نسوة؛ فعلى القول الأول تطلق جميع الزوجات، وعلى القول الثاني تطلق واحدة فقط، على اختلاف بين الفقهاء كيف يكون التطليق، هل هو بالإقراء أو بالاختيار، إلى غير ذلك.

- **هل المفرد المضاف يُفيد العموم أو لا؟**

كلا الفريقين له استدلالات:

- يستدل الأوَّلون بقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فيقولون: المفرد المضاف "نعمة" يعم كل النِّعَم، والدليل أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- أضاف هذا المفرد، ودل على أن نعم الله -عزَّ وجلَّ- عامَّة.

- وهناك قولٌ يتوسَّطُ بينَ القولين، فلا يُطلق القول بأن المفرد المضاف يُفيد العموم، فيشترط له شروط، فيقول: المفرد المضاف لا يعم على كل الأحوال، ولا يُطلق هذا القول، وإنما هو عامٌّ بشروطٍ ثلاثة:

☑ **الشرط الأول:** أن يُضاف إلى معرفةٍ. مثل قولك: "قلمُ حبرٍ"، فـ "قلم" مفرد مضاف إلى نكرة، فليس من ألفاظ العموم، ولكن لو قلت: "قلمُ الحبرِ" فيكون "قلم" مفرد مضاف إلى معرفة، فيكون ألفاظ العموم.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾، فـ ﴿نِعْمَةَ﴾ مفرد مضاف إلى معرفة وهو لفظ الجلالة، وكما قال سيبويه -رَحِمَهُ اللهُ: "لفظُ الجلالة أعرف المعارف".

☑ **الشرط الثاني:** أن يكون المفرد اسم جنسٍ يدل على معنًى شائع في أفراده.

- فقوله: ﴿نِعْمَةَ﴾ اسم جنس يدل على معنًى شائع في أفراده.

☑ **الشرط الثالث:** أن لا تكون الألف واللام الواقعة في المضاف "ال" العهدية، فإذا كانت "ال" التي للعهد فإنها لا تُفيد العموم.

- والمؤلف -رَحِمَهُ اللهُ- هنا ذكر أمثلة للمفرد المضاف على القول بأنه من ألفاظ العموم، مثل قول الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وتم الكلام عليها.

- وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، فـ "الأم" هنا تعم كل أم وإن نزلت، أمُّك التي ولدتكَ، ويدخل في ذلك الجدة، وأم الجدة، فإنها -كما ذكر الفقهاء- تدخل في وصف الأم وفي حكم الأم.

- وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، يعني كل اهتداء من هدي الأنبياء، وفيه دليل على قاعدة أن شرع من قبلنا شرعٌ لنا، وهذه مسألة أصوليَّة، **وهي من المسائل التي وقع فيها الخلاف:**

  - فبعض أهل العلم يقول: إنَّ شرع مَن قبلنا هو شرعٌ لنا.

  - وبعضهم يُقيِّده فيقول: إنَّ شرع من قبلنا -يعني ما جاء عن الأنبياء- شرعٌ لنا ما لم يرد في شرعنا خلاف، فما ورد في الشرع مخالفته فإنه من شرعنا.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ: (القاعدة السادسة: في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده)}.**

- المراد بالتوحيد: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.
- وبتقسيم آخر عند أهل العلم:
  - ✓ توحيد المعرفة والإثبات، وهو يشمل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.
  - ✓ وتوحيد القصد والطلب: وهو توحيد العبادة.
- ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أنه من المقدمات المهمة في هذا: أن القرآن كله في تقرير التوحيد، إما بالنَّصِّ على ذلك، أو بلوازم ذلك.
- كذلك من طريقة القرآن: أنه نبَّه إلى أن كل الرسل يدعون إلى هذا التوحيد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].
- وبيَّن أن الغاية من الخلق هو التوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].
- ثم بيَّن القرآن أن كل الكتب السماوية جاءت بتقرير هذا التوحيد.
- وكذلك بيَّن القرآن في تقرير التوحيد: أنه من لم يأتِ بالتوحيد فإن عمله باطل، قال -عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].
- والفطرة تدل على هذا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].
- كذلك بيَّن القرآن أنَّ التوحيد هو استحقاق لله -عزَّ وجلَّ- لا يشاركه فيه غيره -سبحانه وتعالى- لأنه حقه -سبحانه وتعالى-، فالعدل أن يُصرَف التوحيد له -سبحانه وتعالى- وأن يُتعبَّد له، وضدُّه -وهو الشرك- ظلمٌ عظيم، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] .
- كذلك التوحيد هو حكم الله -عزَّ وجلَّ- على خلقه.
  - ✓ ومن أساليب القرآن في تقرير التوحيد: ذكر محاسن التوحيد ومساوئ الشرك، وآثار التوحيد في الدنيا، وآثار الشرك في الدنيا والآخرة.
  - ✓ ومن أساليب القرآن ذكر آثار التوحيد، فأثر القيام بالعبودية -وهو القيام بتوحيد الله عز وجل- دخول الجنان، وأثر الإعراض عن هذا التوحيد هو دخول النيران -أعاذنا الله والسامعين والمشاهدين والمشاهدات من دخولها وأجارنا منها.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين

الدرس الثانى



بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

❑ {نشرع في هذه الحلقة -بإذن الله- من قول المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة السابعة: في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)}.

- هذه قاعدة جاءت بعد طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده.
- أولًا: ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- خصائص نبوة محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من وجهين:

☑ الوجه الأول: خصائص تتعلق بالنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

☑ الوجه الثاني: خصائص تتعلق بشريعته -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- أمَّا ما يتعلق بالنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فإنه صدَّقَ المرسلين، وأنه دعا إلى ما دعوا إليه، وجميع المحاسن التي في الأنبياء هو أولى بها -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فهو سيد المرسلين، وسيد ولد آدم -عليه الصلاة والسلام.

- كذلك ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- الخصائص المتعلقة بشريعة النبي محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- وهو الإسلام، الذي جعله الله خاتمًا للأديان، والذي لا يرتضي الله -عزَّ وجلَّ- دينًا سواه، قال -عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

- فشريعته -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- الشريعة المحمديَّة هي الشَّريعة المهيمنة على جميع الشرائع، وكتابه مُهيمنٌ على كل الكتب، فهي الشريعة الناسخة، والقرآن ناسخٌ لما جاء قبله من الكتب.

- وجميع محاسن الأديان موجودة في دين الإسلام، وجميع محاسن الكتب السابقة موجودة في القرآن الذي أوحي إلى النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ.

- وهذه القاعدة في غاية الأهمية؛ لأن فهم هذه القاعدة ومعرفة طريقة القرآن في إثبات نبوة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- يستطيع من خلالها طالب العلم والمؤمن والمسلم والمسلمة أن يردوا على المشككين في نبوة النبي محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ-.

- وذكر الشيخ أن تقرير نبوة محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- جاء من أوجه متعددة، تقريبًا عشرة أوجه:

  ❖ **أولًا:** أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يجالسَ أحدًا من أهل الكتاب؛ لأنه عاشَ في مكَّة؛ بل جاء بكتاب مُعجِزٍ في لفظه ومعناه، فهو مُعجز في ألفاظه ومعانيه، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] ؛ بل لم يكتفِ القرآن في تقرير ذلك، فتحدَّاهم أن يأتوا بعشر سور، ثم تحداهم بأن يأتوا بسورةٍ من مثله؛ فما استطاعوا.

- **ثانيًا:** إخبار النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- بقصص الأنبياء مطوَّلة على سبيل التفصيل تارةً، وتارةً أخرى على سبيل الإجمال، تجد أن القرآن يذكر قصَّة موسى، يختصرها في موضعٍ ثم يتناولها في موضع آخر، وهكذا كل قصص الأنبياء، كقصة يوسف والأحداث التي وقعت فيها، وأشياء كثيرة جدًّا من قصص الأنبياء ذكرها الله -عزَّ وجلَّ- في القرآن، وهذا القرآن أُنزِلَ على مَن لا يقرأ ولا يكتب، وليس له عِلمٌ بالكتب السابقة، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ- في موضع الامتنان على نبينا محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- بهذا الوحي: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]، وذكر الله قصة مريم فقال: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، ومع هذا لم يستطع أحدهم في زمانه أن يُعارض النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- فيما أخبرَ به عن الأنبياء، مع وُجود هذه الكتب بينَ أيديهم، وعندهم هذه القصص وهذا العلم ومع ذلك لم يستطيعوا؛ أليس ذلك من براهين نبوَّة محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ؟

- **ثالثًا:** ظهور دين النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ-، فدين النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- والشريعة المحمَّديَّة ظهرت، وفي هذا الزمان تعتبر ظهرت بسرعة فائقة، تعرف أن الزَّمن نسبي، ولكن في وقت -وهو زمن قصير جدًّا في

عمر الزمان- ظهر النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- وظهر أتباعه وهم الصحابة، وتعرف أن بين هجرة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- وفتح مكَّة ثمان سنوات، فبين أن يُخرَج النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- من مكَّة وهو خائفٌ على نفسه وبين أن يفتح مكَّة ثمان سنوات، تعتبر في عمر الزمان قصيرة جدًّا.

- فكل مَن أراد النصرة والتمكين فعليه أن ينصر ما جاء به محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- لأن المعادي لشريعته ولنبوته مبتورٌ؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣]، أي: مقطوع.

❖ **رابعًا:** ما عليه -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- من الأوصاف والأخلاق الجميلة، ومن ذلك خُلق الصدق الذي كان عليه -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- قبل البعثة وبعدها فلم ينفك عن هذا الخلق، ولهذا أثنى الله -عزَّ وجلَّ- عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وكانت عائشة تقول: "كان خلقه القرآن"، وهو لم يُعلَم عنه -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- الكذب، فكيف يُتصوَّر ممَّن لم يكذب على الناس ولم يُعرَف عنه في مبدأ أمره أن كذب على أحد من الخلق؛ فكيف يُتصوَّر أن يكذب على رب العالمين! حاشاه عن ذلك -عليه الصلاة والسلام.

❖ **خامسًا:** ما جاء في كتب الأولين -التوراة والإنجيل- مع ما هي عليه من التحريف والتبديل من البشارة بنبوة محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- وباسمه -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فهو مذكور في التوراة والإنجيل.

❖ **سادسًا:** الإخبار بالمغيَّبَات في زمانه -عليه الصلاة والسلام- وفي الأزمنة التي تلَت، ولا تزال هذه الإخبارات التي أخبر بها النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- يراها الناس عيانًا كما أخبر -عليه الصلاة والسلام- أليس ذلك برهانٌ على أنَّه مبلِّغٌ عن الله -عزَّ وجلَّ- وأنَّه نبيٌّ؟!

❖ **سابعًا:** أنَّ دينه محفوظٌ مع ما جاء به من هذه النبوة، ومع ما قام له من الأعداء، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١]، فوصفوه بأوصاف، وذكروا عنه أشياء، وهمُّوا بقتله؛ ومع ذلك حفظه الله -عزَّ وجلَّ- وعصمه من أذى الخلق، مع تداعي الهمم على القضاء عليه والإيقاع به، وإبطال ما جاء به محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- ولهذا أنزلَ الله -عزَّ وجلَّ- قوله: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، فعصمه الله -عزَّ وجلَّ.

❖ **ثامنًا:** الإعجاز بالقرآن، فإن القرآن معجزٌ في لفظه ومعناه، فهو كما قال تعالى: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت:٤٢].

❖ **تاسعًا:** ظهور المعجزات على يديه -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- في زمانه، وقد شاهدوا ذلك عيانًا، من نبع الماء بين أصابعه -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- إلى غير ذلك من المعجزات التي رآها الناس عيانًا.

❖ **عاشرًا:** بيان أنَّه عظيم الشَّفقة -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- على هداية الخلق؛ بل يُتعبُ نفسه ويُضرُّ بنفسه-عليه الصلاة والسلام- لأجل هداية الناس، ويتخذ بذلك أحسن الأوصاف والأخلاق، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال الله -عزَّ وجلَّ- معاتبًا له: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ [الكهف: ٦]، يعني: حزنًا على عدم الإيمان -عليه الصلاة والسلام-، وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨]، فاللهم صلِ وسلِّم على نبيِّنا محمدٍ.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثامنة: طريقة القرآن في تقرير المعاد)}.**

- لابدَّ أن يُعلَم أن البعث هو: الإيمان باليوم الآخر، وأن الله -عزَّ وجلَّ- يبعث الأجساد بعدَ فنائها للحساب والجزاء، فيُدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار، وفق حكمته -سبحانه وتعالى.

- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أنَّ أمرَ المعاد اتَّفقت عليه الرُّسل والشَّرائع كلها، ما فيه خلاف بين الأديان والشرائع الثلاث -اليهودية والنصرانية والإسلام- أنَّ الله يبعث الأجساد، حتى الأديان التي دخل جملة منها وضعٌ للبشر، مثل المجوسيَّة وغيرها؛ تجد أنَّها تؤمن إيمانًا كاملًا أو جزئيًّا بأمر المعَاد.

- وذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ستَّة أمثلة لبيان أساليب القرآن في تقرير المعاد:

✸ **الأسلوب الأول:** بيَّنَ لهم في القرآن أن الله لا يعجزه شيء، فإذا استقرَّ في قلب العبد أن الله لا يعجزه شيء؛ فإن أمر المعاد فردٌ من أفراد هذا الشيء.

✸ **الأسلوب الثاني:** أن يذكرهم بالنشأة الأولى، يعني كيف بدأ الإنسان، فأنت لك تاريخ ميلاد، وقبل تاريخ الميلاد هذا ليس لك وجود، وهكذا أنا وأنت وفلان وفلانة؛ ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ- مذكِّرًا بالنَّشأة الأولى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا**﴾ [الإنسان: ١]، فقبل خلق آدم لم يكن شيئًا، وفي بني آدم فإنهم لهم تواريخ معيَّنة، وقبل الميلاد ليسوا بشيءٍ، قال تعالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [الإنسان: ١، ٢].

✸ **الأسلوب الثالث:** ضرب الأمثال المحسوسة للمعاد.

- فالناس يشاهدون في حياتهم هذه الأمثلة، وهي الإحياء من لا شيء، إحياء الأرض الميتة بعد موتها، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً**﴾، يعني ما فيها شيء، لا نبات ولا شيء مما أصابها من انقطاع ماء السماء عنها. قال: ﴿**فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [فصلت: ٣٩]، آمنتُ بالله!

- **الأسلوب الرابع:** خلق السماوات والأرض، ومع عظيم خلقها وسَعة السماوات بالنسبة للأرض، فبأي شيءٍ يستبعدون إحياء الموتى!

- **الأسلوب الخامس:** أن المعاد متوافق مع حكمة الله -عزَّ وجلَّ- قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فالله -عزَّ وجلَّ- ما خلقنا سُدَى، إنما خلقنا امتحانًا وابتلاءً، قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، فإن مُقتضى الحكمة أن لا يُترَك الناس سُدَى دونَ جزاءٍ ولا يُعاقبون، فمثلًا وجود الظلم والشر في هذه الأرض، والبغي وما شاكلَ ذلك من الاعتداء؛ فهذا يدل على أنَّه ثمَّ جزاء وهو يوم المعاد.

- **الأسلوب السادس:** الأمثلة التي رآها الناس عيانًا في الأمم السابقة معجزات، كإحياء الموتى على يد عيسى، وإحياء صاحب البقرة، وكقصَّة أصحاب الكهف، وغيرهم من الشواهد التي رآها الاس عيانًا؛ ذكرها الله -عزَّ وجلَّ- كبراهين على أن أمر المعاد من الأمر اليسير، ولهذا قرَّره القرآن بأساليب متنوّعة.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة التاسعة: في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية)}.

- القرآن له طريقة في مخاطبة أهل الإيمان بالأحكام الشرعية؛ لأن الأحكام الشرعية تكاليف كلَّف الله -عزَّ وجلَّ- بها الناس، حتى يعلم مَن يقوم بهذه التَّكاليف ممَّن يُعرض عن القيام بها، فقرَّر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مقدَّمة، **ثم وضَّح أساليب القرآن في ذلك:**

  - **الأسلوب الأول:** أنَّ الدعاء بالتي هي أحسن هو أقرب طريقٍ للمقصود وحصول المطلوب، يعني أنَّك تسلك الدعاء بالتي هي أحسن، يعني استخدام النداء بالألفاظ الحسَنَة والتَّوجيه الحسن، والقرآن استخدم هذه الطريقة في دعوة الناس إلى الحق والخير، لأن القرآن فيه أمرٌ ونهيٌ وإخبارٌ وأحكام، وهذه الأمور يُرادُ بها دلالة الناس على الصراط المستقيم لخيرهم في دنياهم وأخراهم، فالله غنيٌّ عن خلقه.

- إذن؛ القرآن استخدم هذا المنهج، وخاطبهم بأحسن أوصافهم، لأنه خطاب بالتي هي أحسن، فخاطبهم بوصف الإيمان، كما في أثر عبد الله بن مسعود: "**إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعك، فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ**"[١]، وفي بعض الآيات ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾، فالقرآن يخاطبهم بهذه الألفاظ الحسنة.

◆ **لماذا خاطبهم بوصف الإيمان؟**

[١] تفسير ابن كثير (١/ ٣٧٤).

- لأنه أحسن وصف لهم، وهذه هي طريقة القرآن، كما في قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

➢ **الأسلوب الثاني:** أنَّ الإيمان له لوازم ومقتضيات، فيحثهم على القيام بلوازمه ومقتضياته، فمقتضى أنك مؤمن أنك تلتزم، حتى في خطاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- لأصحابه، كقوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «ومَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فلا يُؤْذِ جارَهُ، ومَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[٢]، إلى غير ذلك من النصوص.

➢ **الأسلوب الثالث:** أن الله -عزَّ وجلَّ- يذكرهم أنَّ إيمانهم محض فضلٍ ونعمةٍ منه -عزَّ وجلَّ- ولهذا قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

- فأنت مؤمن؛ فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهملِ، لأنكَ من أهل الإيمان، ويجب على أهل الإيمان القيام به، فالله اختصَّكَ بهذا الإسلام واختصَّكَ بهذا الدين؛ فعليكَ أن تلتزم بلوازمه ومقتضياته.

➢ **الأسلوب الرابع:** أنَّ الإيمان له آثارٌ حميدة، كما أن الكفر والفسوق والطغيان له عواقب وخيمة؛ فكونك تدرك أنَّ له آثارٌ فهذا يبعثكَ على القيام بهذه التَّكاليف وإن كانت على خلاف الهوى، وإن شقَّت على النفس؛ لأنَّ النفس يشق عليها التَّكاليف، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ولكنها شاقَّة وتحتاج إلى مجاهدة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

➢ **الأسلوب الخامس:** أنَّ القرآن يذكر عاقبة الإيمان، وما أعدَّه الله -عزَّ وجلَّ- لهم من ذكر الجنَّة وأوصافها، وما فيها من النَّعيم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، وقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ [النبأ: ٣١، ٣٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

➢ **الأسلوب السادس:** ذكر ما له -سبحانه وتعالى- من الأسماء الحسنى والصفات العلا، فكون الله -عزَّ وجلَّ- موصوف بكل اسم حسنٍ، وبكل صفةٍ حسنةٍ -سبحانه وتعالى- وله أعلا الأوصاف وأحسن الأسماء، فهذا ممَّا يكونُ من حقِّه -سبحانه وتعالى- على العباد أن يقوموا بعبوديَّته ولا يكون ذلك إلَّا بالإيمان، وفي حديث معاذ لما كان رديف النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- قال له النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «يا مُعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللّهِ عَلَى الْعِبَادِ وما حقُّ العبادِ عَلَى الله؟ قَالَ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللّهِ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً»[٣].

---

[٢] أخرجه البخاري (٦٤٧٥) واللفظ له، ومسلم (٤٧)

[٣] أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠) باختلاف يسير

- **الأسلوب السابع:** ذكر عظيم أثر ولاية الله -عزَّ وجلَّ- لخلقه، فإنَّ مُقتضى أن تقوم بهذه التكاليف والأحكام الشرعية، وأن تنتهي عن ما نهى الله -عزَّ وجلَّ- عنه، وأن تأتمر بما أمر الله -عزَّ وجلَّ- به؛ لا شكَّ أن لذلك ثمرة في الدنيا والآخرة.

- **أما في الآخرة:** فالجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ ففيها النعيم المقيم -نسأل الله لنا ولكم وللمشاهدين وللمشاهدات الجنة.

- **وأما في الدنيا:** فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، فمعيَّة الله -عزَّ وجلَّ- لأهل الإيمان، وأهل الإيمان هم الممتثلون لتلك الأحكام الشرعيَّة، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤]، الله أكبر! فأهل ولاية الله -عزَّ وجلَّ- هم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الدنيا والآخرة.

- وأذكر عبارة للإمام الشافعي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فيما نقل عنه بعض السلف، قال: **"لا تغتروا به -يعني العابد- ولو طار في الهواء حتى تنظروه عند الأمر والنهي"**، يعني: عند أمر الله ونهيه -عزَّ وجلَّ- فيكون ممتثلًا لأمر الله، منتهيًا عن ما نهى الله -عزَّ وجلَّ- ؛ فهذه هي ولاية الله تعالى، وولاية الله لا تُدرك إلا بطاعته -سبحانه وتعالى- فلا يُمكن أن تكون الولاية على غير هذا، وهذا من الانحراف في مفهوم الولاية كما هو مقرَّر عند أهل السنَّة والجماعة.

- **الأسلوب الثامن:** أنه يحذرهم من أن يسلكوا مسلك أهل الغفلة عن الإيمان، قال -عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠]، إلى غير ذلك من الآيات التي تذكر أهل الإيمان بهذا الامتثال، ولا شكَّ أنَّ من أعظم ما يُقام به ذكر الله -عزَّ وجلَّ- إقامة الصلوات الخمس حيث أمر الله -عزَّ وجلَّ- بها، فلا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة، وهي من تكاليف الله -عزَّ وجلَّ- ولهذا قال تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، دلَّ على أن هذه الصلاة إنَّما تكون حيثُ يُنادَى بهنَّ في المساجد، ولهذا فإنَّ أهل الإيمان عليهم أن يمتثلوا أمر الله -عزَّ وجلَّ- وأن يُقيموا هذه الشريعة العظيمة وفقَ ما أمرَ الله به، ووفق ما أمر به النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ووفق ما نقل عن أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- قال عبد الله بن مسعود عن هذه الشعيرة العظيمة التي هي من الأحكام الشرعية: **"وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وما يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى به يُهَادَى بيْنَ الرَّجُلَيْنِ حتَّى يُقَامَ في الصَّفِّ"**[٤].

---

[٤] صحيح مسلم (٦٥٤).

الدرس الثالث



بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

❑ {نقرأ القاعدة العاشرة -بإذن الله- قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة العاشرة: في طرق القرآن إلى دعوة الكفار على اختلاف مللهم)}.

- هذه القاعدة ذكرها الشيخ عبد الرحمن بن السعدي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في أسلوب القرآن في دعوة الكفار لدين الإسلام، وذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أنَّ أسلوب القرآن الذي هو كلام الله -عَزَّ وَجلَّ- الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ **فذكر أربعة أساليب -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- نختصرها ونبيّنها للإخوة:**

✹ **الطريق الأول:** يذكر محاسن الدين والشريعة المحمَّديَّة، وما فيها من الشرائع السَّمحة، فالله -عَزَّ وَجلَّ- في القرآن يُبيّن ما في هذا الدين من السَّماحة والوسطيَّة، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وكما جاء عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ

السَّمْحَةِ»[٥]، وجاء بما جاءت به الأنبياء، ورفع عن هذه الأمَّة الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة، ولهذا فإنَّ الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يقول: إنَّ هذا الطريق هو أعظم طريقٍ يُدعَى به جميع المخالفين.

- ولهذا يحسُن بالدعاة وبطلاب العلم أن يُبرزوا محاسن الإسلام، ولهذا صنَّف أهل العلم مصنَّفات في محاسن الدين الإسلامي، والدَّاعي إلى الله -عَزَّ وَجلَّ- ومَن يدعو غير المسلمين عليه أن ينتبه إلى هذه القضية.

- وممَّا يُعزِّز اليقين في قلوب أهل الإيمان أن تُبرَز لهم محاسن هذا الدين، وذلك بذكر ما فيه من اليُسر وما رفع الله من الآصار والأغلال، وكونه صالح لكل زمان ومكان، وهذا ظاهرٌ في أحكام العقوبات، وفي أحكام السفر، إلى غير ذلك من الشرائع والفرائض التي فرضها الله -عَزَّ وَجلَّ- ويظهر فيها رفع المشقة عن عباد الله -عَزَّ وَجلَّ.

الطريق الثاني: أنَّ دعوة هؤلاء يكون بالتَّخويف من عذابه، وأنَّ طاعته أولى من متابعة الرؤساء والزُّعماء في الباطل، وذلك لأن متابعة الزعماء والرؤساء والمؤثرين في المجتمعات هي من أسباب الرَّد والصَّد عن الحق، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجلَّ- عن أهل النار: ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا**﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وقال الله -عَزَّ وَجلَّ- في القرآن: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ [البقرة: ١٦٧]؛ فهذا يدل على أنَّ هؤلاء يتبرَّأ بعضهم من بعض، وتبرُّؤ الرؤساء من الأتباع يوم القيامة، فذكَّرهم الله -عَزَّ وَجلَّ- بهذا، وهذا من الطرق التي يُدعَى بها من خالف الإيمان للإيمان بالله -عَزَّ وَجلَّ.

الطريق الثالث: هو استقراء ما في القرآن مما يجب عليهم تجاه نعمة الله عليهم من الشكر له، ولا يكون ذلك إلا باتباع الدين الذي رضيه، ولهذا فإنَّ الله -عَزَّ وَجلَّ- عدَّدَ النعمة فقال: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ**﴾ [الجاثية: ١٣]، وذكر الله تعالى أنَّ نِعمه لا تحصى، ومرَّ معنا أنَّ النَّكرة في سياق النفي تدل على العموم، قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فنعم الله -عَزَّ وَجلَّ- كثيرة، التي يُسبغها على الإنسان خاصَّة، وعلى الناس جميعًا ممَّا أقامه الله -عَزَّ وَجلَّ- لهذه الدنيا من السنن الكونية، وتسخير الليل والنهار، ورحمة الله -عَزَّ وَجلَّ- بالعباد في هذه الدنيا، وجعل هذه الأرض صالحة للسَّكن، إلى غير ذلك من النعم التي يعرفها المؤمن والكافر، فشكر هذه النِّعم لا يكون إلا باتِّباع الإسلام الذي جعله الله -عَزَّ وَجلَّ- خاتم الأديان.

الطريق الرابع: وهو بما عليه أديانهم من الباطل، سواء الأديان المحرَّفة، أو الأديان الوضعيَّة؛ كل هذه الأديان دخلها التَّحريف؛ فالدِّيانة اليهوديَّة دخلها التَّحريف، قال -عَزَّ وَجلَّ- في تحريف التوراة:

---

[٥] أخرجه أحمد (٢٢٣٤٥)، والطبراني (٢٥٧/٨) (٧٨٦٨) مطولاً، صححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٢٤).

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]. وكذلك النَّصارى فإنهم أدخلوا التَّحريف على الإنجيل.

- فهذه الكتب -التوراة والإنجيل- دخلها التحريف والتغيير، ولا يُعرَف كتاب أُنزل من عند الله -عَزَّ وَجلَّ- لم يدخله التَّحريف إلَّا كتابٌ واحدٌ وهو القرآن العظيم، الذي تكفَّل الله -عَزَّ وَجلَّ- بحفظه؛ لأنه هو الدين الخاتم، قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

- إن المؤمن وطالب العلم والداعية إلى الله -عَزَّ وَجلَّ- لابدَّ أن يترسَّمَ نهج القرآن في دعوة الكفار؛ فهذه أساليب ينبغي للداعية أن يُراعيها في دعوة مَن لم يؤمن بهذا الدين، وهي -كما ذكرها الشيخ- أربعة طرق، فعلى الداعية إلى الله -عَزَّ وَجلَّ- أن يهتمَّ بها.

- ثم قال الشيخ: (كل هذه الطرق يسلكها بالطريق الأقوم، وهي الدعوة بالحسنى)، فهذا هو أصل وشعار أهل الإسلام، ولهذا فإنَّ الله -عَزَّ وَجلَّ- لَمَّا أرسل موسى وهارون إلى أعظم الطغاة قال الله -عَزَّ وَجلَّ- لهما: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، مع علم الله -عَزَّ وَجلَّ- أنه لا يؤمن، ولكن لأن الدعوة بالتي هي أحسن هي شعار أهل الإيمان.

- والقرآن سلك معهم كل هذه المسالك؛ وبانَ أنَّهم أهل جحودٍ وعنادٍ ومكابرة، وهذا حدث في زمن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ-، وهذا ظهر من ثلاث طوائف: من كفار قريش، ومن اليهود، ومن المنافقين؛ ولهذا فإن الله -عَزَّ وَجلَّ- خاطبَ كل طائفة بهذه الأساليب وهذه الطرق، فإذا عُلم منهم الجحود والعناد؛ فإن الله -عَزَّ وَجلَّ- يذكر في القرآن ويُبيّن أنهم موعودون بالعقوبات والنكال في الدنيا والآخرة، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجلَّ- عن المنافقين: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وأخبر الله -عَزَّ وَجلَّ- عن جحود أهل الكفر فقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وإن كانت هذه الآية في الإخبار عن فرعون؛ إلا أنها تصدق على كل من جحد الإيمان، وبيَّن الله -عَزَّ وَجلَّ- أن الموانع لهذا الإيمان كلها موانع موهومة، إما طاعة السادة، وإما تقليد الآباء والأجداد دون نظرٍ أو تفكُّرٍ، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجلَّ- عنهم: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فبين في القرآن كل هذه الأمور وأقام الحُجج، ولهذا فإن القرآن هو الحجة الرساليَّة على الخلق جميعًا، ومن بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجَّة، والقرآن من عند الله -عَزَّ وَجلَّ- وفيه من الآيات والبيِّنات ما فيه موعظة وذكرى لكل مَن أراد الله -عَزَّ وَجلَّ- الحياة.

- جبير بن مطعم لما سمع قول الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، قال: "كاد أن ينفطر قلبي لها"، فالقرآن يُخاطب أعماق الشعور، ويُخاطب مَن كان له عقل، ويُخاطب الفطرة، ويذكر

أساليب متنوعة في ذلك، إلى غير ذلك من الأساليب التي ذكرها الله في القرآن، والتي نسأل الله تعالى أن ينفعنا بها جميعًا.

- {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الحادية عشرة: مراعاة دلالة التضمن والمطابقة والالتزام.
- كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه ألفاظه مطابقة. وما دخل في ضمنها، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني، وما تستدعيه من المعاني التي لم يصرح اللفظ بذكرها)}.

- هذه القاعدة نبَّه الشيخ عليها، ونختصرها بقولنا: على المفسر للقرآن، وعلى المتدبر لكلام الله -عَزَّ وَجلَّ- وعلى القارئ لكلام الله -عَزَّ وَجلَّ- أن يُراعي دلالة الألفاظ مطابقةً وتضمُّنًا والتزامًا.
- وهذه قاعدة معروفة عند علماء الأصول، وهي أن اللفظ له دلالة المطابقة، وله دلالة التَّضمُّن، وله دلالة الالتزام.
- وعلماء الأصول يضعون حدًّا معلومًا لدلالة المطابقة، فيقولون: هي دلالة اللفظ على تمام المعنى الذي وُضِعَ له.

  - فالتصوُّر الأولي لدلالة اللفظ تُسمَّى دلالة المطابقة، وهي أقوى الدلالات، مثلًا: يعبر علماء الأصول عن "الإنسان" بأنه حيوانٌ ناطق، فهو ممَّن يحيا ويختلف عن العجماوات بأنه ينطق ويفصح بما عنده، فلما نقول "إنسان" يتبادر إلى الذهن بدلالة المطابقة أنَّه هو الإنسان الذي يُعقل منه أنه يتكلم.
  - دلالة التّضمُّن: هي دلالة اللفظ على جزء المعنى الذي وُضِع له.
  - دلالة الالتزام: وهي أقل من دلالة التَّضمُّن، كلها دالَّة، وهي دلالة اللفظ على شيءٍ خارجٍ عن حقيقة المعنى، ولازمة في الذهن لا تنفك عنه. فهي ليست مرتبطة بذاته، ولكنها ملتزمة للذات.

- وهذه الدلالات مُهمَّة جدًّا، وعلى المفسر أن يُراعي تلك الدلالات، ولهذا وصف الشيخ هذه القاعدة فقال: (هذه من أجل قواعد التفسير)، وذكر أنه مُجمَع عليها وما فيها خلاف.

كيف نُعمل هذه القاعدة؟

- الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- **ذكر ثلاثة عوامل لفهم دلالات القرآن من خلال هذه الدلالات الثلاث:**

☑ العامل الأول: فهم المعنى من اللفظ، فلابد أن تفهم المعنى من، وهذا يُعرف بالنظر إلى اللغة العربية؛ لأن القرآن نزل بلسان العرب، فلابدَّ أن تفهم المعنى، واشتقاقات اللفظ واستعمالاته.

☑ العامل الثاني: التفكُّر في دلالة التَّضمُّن للفظ وما يلزم منه، أن تتفكر ماذا يتضمَّن هذا المعنى، فأنت عرفت اللفظ، وقد يتضمَّن معانٍ كثيرة جدًّا تدخلها في المعنى الذي جاء فيه.

☑ **العامل الثالث:** تحتاج منك إلى مران وقدرة في التدبر للمعنى، تعرف اللفظ، وتعرف ما يدل عليه، ودلالاته.

- والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- برزَ هذا العلم عنده في كتابه اللطيف "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان"، وهو من أنفع التَّفاسير وأيسرها سهولة وعذوبة في الألفاظ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- وأسأل الله أن يُجزله المثوبة.
- وهذا ما تقدَّمناه كله تنظير لهذه القاعدة، ولهذا فإنَّ الشيخ قال: **(من أجل آثار القاعدة أنَّك تعرف دلالة أسماء الله -عَزَّ وَجلَّ- من خلال هذه الدلالات بهذه القواعد)**.
- دلالة المطابقة من: "الرحمن الرحيم" تفيد أنه رحمن رحيم، وسعت رحمة الله -عَزَّ وَجلَّ- لجميع خلقه، وأنه -سبحانه وتعالى- في هذه الرحمة لا يُماثل خلقه؛ لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فهو: "الرحمن الرحيم".
- وفسَّر بعض السلف "الرحمن" بعموم الرحمة للخلق، وتراحم الناس فيما بينهم، حتى تراحم الدواب فيما بينهم يدخل في اسم الرحمة.
- وقالوا: إن اسم "الرحيم" هذا مزيد الرحمة لأهل الإيمان، مثل قول الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].
- فمن خلال دلالة المطابقة علمنا أن رحمة الله -عَزَّ وَجلَّ- وسعت كل شيء، قال -عَزَّ وَجلَّ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المرحومين.
- إذن دلالة المطابقة لأسماء الله "الرحمن الرحيم" أن من صفاته أنه رحيم ورحمن، وأن رحمته وسعت كل شيء؛ فهذا من دلالة المطابقة، وهي دلالة اللفظ على تمام المعنى.
- دلالة التَّضمُّن: أن تتضمَّن هذه اللفظة معنًى آخر.
- فرحمة الله -عَزَّ وَجلَّ- كما أنها دلَّت على صفة الرحمة فإنها تتضمَّن صفات أخرى، فكونه رحيم دلَّ على كمال حياته -سبحانه وتعالى- وعلى أنه قادر، وأن قدرته كاملة، وهذا لا يكون إلا ممَّن هو عليم، فالحياة والقدرة لا تكون إلا ممَّن هو عليم، فدل اسم الله "الرحمن الرحيم" بدلالة التَّضمُّن على صفة الحياة وصفة القدرة وصفة العلم.
- فمن هذا اللفظ عرفنا صفات أخرى تضمُّنًا لمعنى "الرحمن الرحيم"، ومع كون هذه الصفات دلَّت بدلالة المطابقة في آيات أخرى عليها، فدلَّ هذا اللفظ من خلال دلالة المطابقة ودلالة التَّضمُّن.
- دلالة الالتزام: كونه "رحمن رحيم" دلَّ على أن كون رحمة الله -عَزَّ وَجلَّ- شاملة، فهي في شرعه لعباده، ودل على أنه -سبحانه وتعالى- رحيمٌ بعباده في شرعه، ولهذا أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، قال الله -عَزَّ وَجلَّ- في دلالة ذلك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فدلَّ بالالتزام على أنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه

وَسَلَّمَ- رحمة، وكونه رحمة فشريعته جاءت بالرحمة للخلق، ومن رحمته -سبحانه وتعالى- أن الله أقام عليهم الحُجج والبراهين ودلَّهم على الصراط المستقيم، وأقام لهم النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- الخاتم الذي أقام هذه الأمة على المحجَّة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، والمحجَّة البيضاء: هي الطريق الواضح البيّن.

- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مثالًا آخر في أداء الأمانات، قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، فوجوب أداء الأمانة من دلالة المطابقة، وأنه يجب أن تؤدي الأمانة، وبهذا جاءت الشريعة بأداء الأمانة، هذا الأداء ثابتٌ بدلالة المطابقة، وكذلك مع الأداء يجب أن تحفظ هذه الأمانة من التلف، ولو تلفت في يدكَ لكان عليكَ الضَّمان؛ لأنَّ هذا مخالفٌ لأداء الأمانة. فدلَّ على وجوب حفظ الأمانة من أي تلف، وضمان هذه الأمانة إن تلفت بدلالة التَّضمُّن، وهذا يُفيدك أحكام شرعيَّة تترتَّب على هذه الدلالات.

- ودلالة الالتزام في الآية: أنَّ أداء الأمانة لا يكون إلا بحفظها، وحُرمة التَّعدِّي عليها على أيِّ وجهٍ كان، وعلى هذا قامت الشريعة فيما يتعلق بالأحكام الشرعية في أداء الأمانات، وفي باب الرهن، وفي فروع كثيرة من فروع الشريعة.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثانية عشرة: الآيات القرآنية التي يفهم منها قصَّار النظر التعارض: يجب حمل كل نوع منها على ما يليق ويناسب المقام كل بحسبه، وهذا في مواضع متعددة من القرآن)}.

- قوله -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (الآيات القرآنية التي يفهم منها قصَّار النظر التعارض)؛ لأنَّه لا يُمكن أن يكون بين آيات القرآن تضاد، وهذه قاعدة عند أهل الإيمان، ويعقد المؤمن عليها قلبه، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فالقرآن يُصدِّق بعضه بعضًا ولا يُمكن أن يتعارض، وإنما التعارض والإشكال إنما هو في ذهن المكلَّف القارئ، ولهذا فلابد للإنسان أن يعقد قلبه أنه ليس ثَمَّ تعارض بين القرآن، فهذه عقيدة لأنه كلام الله -عَزَّ وَجلَّ- ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] .

- والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- قعَّدَ لهذه القاعدة اللطيفة. فقال: (والآيات القرآنية التي ظاهرها التَّضاد يعني في ذهن المكلف- يجب حمل كل نوع منها على حالٍ بحسب ما يليق ويُناسب المقام)، يعني القرآن لا يُمكن أن يتضادّ، ولكن هذه السياقات لها سياق من جهة سبب النزول، ومنه القاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، والقاعدة "دلالة المطابقة والتضمن والالتزام"؛ فهناك قضية مهمَّة، وهي أنَّ القرآن نزلَ منجَّمًا على الوقائع، وكذلك نزل القرآن المدني والقرآن المكي، فدلَّ على أن القرآن نزل على حسب الوقائع، ففي أحكام الشريعة في المحرَّمات والمنهيات تجد أنَّ ثَمَّ أحكامٌ شرعيَّة نزلَت على التَّدريج في التَّحريم، مثل الخمر، وغيرها من الأحكام، وهكذا الأحكام الشرعيَّة.

- والشيخ ذكر أمثلة، فقال: إخبار القرآن أنَّ الكفار لا ينطقون، قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات٣٥-٣٦]، فدلَّ على أن الكفَّار يوم القيامة لا ينطقون، وفي بعضها أنهم ينطقون، وهذا في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر: ٤٧]، وذكر الله -عَزَّ وَجلَّ- أنهم يتكلَّمون في مواضع.
- فهذا قد يُشكِل عند القارئ والتَّالي لكلام الله -عَزَّ وَجلَّ-، فنقول: القرآن يُصدق بعضه بعضًا ويُفسِّر بعضه بعضًا.
- قال الشيخ: فحمل كلامهم أنهم يتكلمون في أول أمرهم، يعني: حينما يكون الحساب، ثم يأتون في مرحلةٍ من المراحل يُختَم على جوارحهم فلا يتكلَّمون، وهذا نطق القرآن به، قال -عَزَّ وَجلَّ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]؛ فدلَّ على أنَّه ثَمَّ ختمٌ، ثم بعدَ ذلك لا يتكلَّمون، وهذا يدلُّك على أنَّ القرآن أحسن ما يُفسَّر به أن يُفسَّر القرآن بالقرآن، ثم يُفسَّر القرآن بسنَّة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ.
- وعند المؤمن قاعدة أنَّ القُرآن يُصدّق بعضه بعَضًا، ويُفسِّر بعضه بعضًا، وهو كلام الله -عَزَّ وَجلَّ-، وكما قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ومهما بلغ الإنسان من العلم فإنه قاصر، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فالإنسان يسأل ويتعلَّم، ويجمع الآيات ويُراجع كلام المفسرين.
- ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أمثلة متعدِّدَة على هذه القاعدة؛ لأنها مهمَّة جدًّا، ولابدَّ أن نُبيِّنها، فمثلًا: ذكر أمثلة متعدِّدة في باب الموالاة والمعادة، وهي يحسُن أن يُتنبَّه لها؛ لأن بعض أهل الإسلام وبعض الناس ممَّن يُحب الدين قد يفهم هذه الآيات على غير وجهها فيقع في الشَّطط والغلو، وبعضهم ممَّن يُعادي هذا الدين يأتي لهذه الآيات ويُعملها على غير وجهها، وكلٌّ يُحاول أن يأخذ من القرآن بحسب ما يُوافق ما عليه من الهوى والاعتقاد -نسأل الله السلامة والعافية- وهؤلاء لا يُوفَّقون لتدبُّر القرآن.
- فعلى سبيل المثال: ذكر الشي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مسألة الموالاة والمعادة، وهي من عقيدة المؤمن، أنه يوالي أهل الإيمان ويُعادي أهل الكفر، وذكرها الله -عَزَّ وَجلَّ- في مواضع كثيرة من كتابه، فنهى عن مودَّة الكفار وأمر بمعاداتهم، قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤]، فهذا نص وقاعدة، فالولاء لأهل الإيمان، والبراء من أهل الكفر.
- وأمر -عَزَّ وَجلَّ- بالإحسان إلى من له حق على المؤمن، قال -عَزَّ وَجلَّ: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [المتحنة: ٨].
- إذن؛ هذه الآية في سياق، وتلك في سياق:

- ✓ تلك في سياق المحاربين والمعادين.
- ✓ وهذه في سياق غير الحربي وغير المعادي ممَّن له حق، الوالدين إذا كانا على غير الإسلام.

- وهذا يدلُّك على أن الإسلام دين الرَّحمة ودين الفطرة، فهو رحيم حتى بالوالدين وإن كانا على غير الإسلام، وهكذا في أشياء كثيرة جدًّا، والحمد لله القرآن يُصدِّق بعضه بعضًا، فلا تُعمل نصوص وتُترك النصوص الأخرى؛ بل القرآن يُصدِّق بعضه بعضًا.
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مسألة مهمَّة جدًّا -جزاه الله خيرا- وهي مسألة أحكام الجهاد، قال: إن الله تعالى أمرَ بالجهاد في مواضع من كتابه، وفي بعض الآيات أمرَ بالكفِّ. فماذا يُقال؟
- القرآن يُصدِّق بعضه بعضًا ويُفسِّر بعضه بعضًا، قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، فأمر بقتال الكفار، ثم قال -عَزَّ وَجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧].
  - ❍ بعض المفسرين قالوا: إنَّ الآيات التي أمرت بالكفِّ عن الكفار إنما نُسِخَت بآية السيف.
  - ❍ والأرجح والموافق لقاعدة الشيخ والموافق لكلام أهل العلم والمحققين: إن هذه الآيات ليس فيها نسخ، وإنما تُحمَل الآيات في الجهاد على حال، والآيات التي فيها الأمر بالكفِّ على حالٍ، وهذا بحسب حال الأمَّة من القوة والضَّعف.
- والله -عَزَّ وَجلَّ- أمرَ الأمَّة في حال القوَّة بالجهاد وبمقاتلة الكفار، وأمرها حال الضعف أنها تترك هذا الواجب، ويتعيَّن عليها ذلك لحماية بيضة الإسلام.
- وهذا يدلُّك على ما ذكره الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أنه يجب حمل كل نوع منها على حال بحسب ما يليق ويُناسب المقام، فالقرآن يُصدِّق بعضه بعضًا، وبهذا -بحمد الله- تُعمَل النُّصوص كلها، ولا يُترَك منها شيء إلَّا وقد بانَ لأهل الإيمان.

◆ **هذه المَلَكة كيف يعرفها الإنسان؟**

- بمطالعة كتب التفسير، وبمراجعة كلام المحققين من أهل العلم في بيان هذه المسائل، **لأنه حصل الغلو والشَّطط والتَّعدِّي على هذا الدين القويم من طائفتين:**
  - ❖ طائفة من أهل الغلو الذين أرادوا أن يُعملوا النصوص فأعملوها على غير وجهها ولم يفهموها على الوجه الصحيح.
  - ❖ وطائفة أخرى هم أهل التفريط، الذين فرَّطوا في أحكام الدين، وأعملوا ما جاء من النصوص في جانب الرحمة وجانب المهادنة، وجعلوها هي الأصل، وهذا غير صحيح!

- والصحيح أن تُفهم هذه النصوص على وجهها الذي جاء في كلام الله -عَزَّ وَجلَّ- فيُفرَّق بين حال القوة وحال الضَّعف وحال التَّمكُّن، وبحسب الحال والزَّمان، وأحكام الشَّريعة صالحة لكل زمان ومكان، ولهذا فقد يجب على طائفة وجوبًا معيَّنًا، وقد لا يجب.
- وهذا يدلُّكَ على أن هذا الدين القويم صالحٌ لكل زمان ومكان، ومناسب للواقع الذي يعيشه المسلم، ومناسب للأمَّة حال قوَّتها، وبحمد الله فإن من أسباب بقاء هذا الدين ما جاء في القرآن من هذه التَّوجيهات العظيمة، وتراث أهل العلم وكتب المفسرين شاهدة بهذه الوسطيَّة.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس الرابع



بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- {نشرع في هذه الحلقة -بإذن الله- من القاعدة الثالثة عشرة كتاب "القواعد الحسان في تفسير آي القرآن" للشيخ ابن السعدي.
- قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثالثة عشرة: طريقة القرآن في الحجاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة)}.

- كما مرَّ معنا من خلال هذه القواعد أنَّ القرآن هو كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ- وعلى المؤمن أن ينتفع به، ومن الانتفاع بالقرآن: أن ينتفع بالمنهج القرآني في الجدال والمخاصمة، أو في الجدال والمحاجَّة؛ لأنَّ المؤمن بعقيدته التي هداه الله -عَزَّ وَجَلَّ- لها لابدَّ أن يجد مَن يُعارض ذلك، إمَّا في أصل الإسلام، وإمَّا في فروعه؛ ستجد من يُعارض هذا الاعتقاد، أو يُعارض هذه الشريعة أو يُشكِّك فيها.
- فمن الجهاد العظيم أن تُجادل هؤلاء في الدفاع عن هذا الدين، جعلنا الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن نحظى بهذا الشرف العظيم، وهو الدفاع عن ما جاء به محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- من الدين القويم.

- ولهذا فإنَّ القرآن من أوله إلى آخرة في مجالدة لأهل الأديان الباطلة، ومن حكمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- ومن إرادته الكونية القدريَّة أنَّه -عَزَّ وَجَلَّ- جعل الصراع بين الحق والباطل، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- في بيان هذه السنة الكونية: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، ومن حكمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- أنه جعل الدين الحق، وجعل الأديان الباطلة المحرَّفة، وجعل الصراع بين الحق والباطل إلى قيام الساعة، ولهذا سلكَ القرآن طرقًا متنوِّعة نبَّه الشيخ عبد الرحمن السعدي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- وأجزل الله له المثوبة؛ إلى طُرق القرآن في الحِجاج والمجادلة.
- وعلى طالب العلم والداعي إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- وعلى المنافح عن دين محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- أن يترسَّم هذا النَّهج القويم.

❖ **أول طريق -وهو الأسلوب الذي ينبغي أن تكون عليه المجادلة:** قوله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فهذه قاعدة تعم كل لفظٍ وليس كل جدال، فكل لفظ يخرج منك ينبغي أن يكون على التي أحسن، قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]؛ فهذا في القول.

- ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- عند المجادلة: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ﴾، وهذا وصف يصدق على أتباع الديانة اليهودية والنصرانية -أتباع موسى وأتباع عيسى- فهؤلاء لا تجادلهم إلا بالتي هي أحسن؛ لأنَّ عندهم بقيَّة من الحق، وعندهم فطرة فُطِرُوا عليها، فالدَّاعي إلى الإسلام يُحرِّك داعي الفطرة، ويُحرِّك ما عندهم من العلم للإيمان بما جاء به محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- فلا يُجادلهم إلا بالتي هي أحسن، فهذا طريق مُهم جدًّا، ولهذا يجب على كل داعٍ إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن يترسَّمه وأن يتذكَّره، وإن حصلَ منه غلط أو انحراف عن هذا الطريق؛ فعليه أن يُعاود وأن يرجع؛ لأنَّه لا يُمكن أن تكون نتائج طيبة والمثوبة من الله -عَزَّ وَجَلَّ- قائمة إلَّا بهذا التَّوجيه القرآني العظيم.

❖ **الطريق الثاني:** قال: إنَّ الرسل تُذكِّر بالربوبية في أنَّ التَّوحيد ثلاثة أنواع -كما مرَّ معنا: توحيد ربوبية، وتوحيد ألوهية، وتوحيد أسماء وصفات.

➢ **فتوحيد الربوبية:** هو توحيد الله -عَزَّ وَجَلَّ- بأفعاله، وأنه هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، وهذه خمس من أفعال الربوبية، يندرج تحتها باقي الأفعال.

- فكونه خالق ورازق ومحي ومميتة ومدبر؛ فهذا هو توحيد الربوبية، وهذا يجتمع عليه الخلائق، وفُطِرَ الناس عليه، وهذا لا يُخالف فيه اليهود ولا النصارى، ولا حتى مُشركي العرب، فكانوا يُقرون بهذا النوع من التوحيد.

➢ **توحيد الألوهية:** وهو توحيد الله -عَزَّ وَجَلَّ- بأفعال العباد، كالدعاء والاستغاثة، وأن يُعبَد الله وحده بأفعال العباد، فكما أنه لا يُسجَد إلا لله فكذلك لا يُدعَى ولا يُستغاث إلا بالله -عَزَّ وَجَلَّ.

➢ **توحيد الأسماء والصفات:** وهو أن يُعتَقَد أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- في أسمائه وصفاته لا مثيل له، ولا ندَّ ولا نظير -سبحانه وتعالى- له الأسماء الحسنى والصفات العُلا.

- فالرسل تُذكر بربوبيته تعالى، وبهذا التوحيد، وأن هذا التوحيد هو مغروس في الفِطر، ويدلك على ذلك آيات القرآن، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]، وقال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[٦]؛ فدل على أنه مفطور على هذا التوحيد الذي هو مغروس في الفِطَر، وهو الإقرار بالعبودية له -سبحانه وتعالى.
- وكونه مغروس في الفِطَر وأن الله -عَزَّ وَجَلَّ- هو الرب الخالق الرازق المحيي المميت؛ فهذا يستلزم أن يعبَد وحده، ولهذا فإن الله -عَزَّ وَجَلَّ- في محاجَّة مُشركي العرب الذي يُقرّون بتوحيد الربوبية قال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وفي آيات كثيرة جدًّا يحثهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- على توحيده بالعبادة؛ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية وأن يُعبَد الله وحده، فذكر هذا الطريق في الحِجاج والمجادلة.
- فالدَّاعي إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- يحتاج إلى أن يُذكر بالربوبية، وأن يُبيِّن أنَّ الربوبية تستدعي من الإنسان أن يعبد الله وحده، وكل من خالف وانحرفَ في توحيد العبادة عليه أن يُذكَّر بهذه القضية في الحجاج والمجادلة، فكونه ربك وخلقك ورزقك؛ فكيف تصرف الدعاء لغيره! كيف تصرف الاستغاثة لغيره! كيف تطوف بغير بيت الله -عَزَّ وَجَلَّ! كيف تستغيث بغير الله -عَزَّ وَجَلَّ!

❖ **الطريق الثالث:** ذكر الشيخ أنَّ مِن طرق القرآن في الحِجاج مع أهل الأديان الباطلة ذكر عيب آلهتهم، وما عليها من النقص، وفي هذا ذَكَرَ الله -عَزَّ وَجَلَّ- آيات كثيرة، فذكر قصَّة إبراهيم، قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣، ٦٤]، وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]، آيات كثيرة جدًّا تدل على أن هذه الآله لا تضر ولا تنفع، قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، وذكر أهل الشرك بأن هذه المعبودات لا تنفع ولا تضر.

- وأمَّا أهل الكتاب فذكَّرهم بما كانوا عليه من السوابق من مُعاداة رسل الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولهذا ذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- قصص عظيمة لأهل الكتاب، وأهل الكتاب يدخل فيهم اليهود والنصارى؛ لأن عيسى هو رسول لبني إسرائيل، ولكن اتبعه النَّصارى، فانفصلوا عن اليهود، فذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- قصصهم، وكذلك قصة موسى

---

[٦] صحيح البخاري (١٣٥٨).

مع فرعون، وقصة البقرة، وقصة موسى مع اليهود في قوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وقوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]، فذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- كثير من الآيات.

❖ **الطريق الرابع:** التَّحدِّي لهم بأن يأتوا بكتاب وشريعة أهدى وأحسن من هذه الشريعة.

- وهذا التَّحدِّي في زمن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- وإلى يومنا هذا، لن يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا الكتاب، ولن يستطيع أحد أن يأتي بشريعة ونظام خير من الشريعة المحمدية، وهذا التَّحدِّي قائم، ولهذا فإن الله -عَزَّ وَجَلَّ- تحدَّاهم أن يأتوا بمثل القرآن، ثم تحدَّاهم أن يأتوا بعشر سور، ثم تحدَّاهم بسورة واحدة؛ وهذا مع تداعي همم الفصحاء والبلغاء على أن يعارضوا القرآن، ومع ذلك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.
- ولهذا نقول: القُرآن مُعجزٌ في لفظه ومعناه، ونُبيِّن أن هذا الكتاب إعجازه كذا وكذا، وهذا من الطُّرق التي يُجادَل بها أهل الأديان المختلفة لدعوتهم إلى دين الله -عَزَّ وَجَلَّ.
- ثم قال الشيخ: **(وفي الجملة لا تجد طريقًا نافعًا فيه إحقاق الحق وإبطال الباطل إلا وقد رسمه القرآن على أكمل الوجوه)**.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الرابعة عشرة: حذف المتعلق المعمول فيه: يفيد تعميم المعنى المناسب له)}.**

- قوله: **(حذف المتعلق)**.

يعني: حذف معمول الفعل، ومعمول الفعل هو المفعول به، وحذفه يُفيد تعميم المعنى، أو كما يعبر بعض الأصوليين بقول: "يُؤذِنُ بالعموم"، أي: يُشعِرُ بالعموم.

- وذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مثالًا على ذلك، قال: قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ مفعوله محذوف، فهنا حذف المفعول به -المعمول- وهذا يدل على أنه خالق كل شيء، وهذا من دلالة الآية من غيرها من الآيات، وهذا يعم كل الخلائق، فدلَّ على عموم خلق الله -عَزَّ وَجَلَّ- وأن خلق الله -عَزَّ وَجَلَّ- يتناول كل شيء، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، والله خلق كل صانعٍ وصنعته، فعموم الخلق هو من عند الله -سبحانه وتعالى.
- قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]، هنا ذكر المعمول، فهذا لا يُؤذِن بالعموم؛ لأنه خصَّ خلق الإنسان بأنه من علق، فدلَّ التخصيص على أن الإنسان هو الذي خُلق من علق، ولم يُؤذن بالعموم؛ لأنه هنا ذكر المعمول -المفعول به- فتعرف من هذا أنه إذا حُذف المعمول والمفعول به فإنه يُؤذِن بالعموم.
- قال الشيخ: **(يفيد تعميم المعنى المناسب له)**، وهذا بحسب السياق، ويدخل في ذلك ما كان من السياق منه وهو فردٌ من أفراد هذا المعنى، ومثَّل الشيخ بأمثلة كثيرة جدًّا، نذكر بعضها:

- قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فالسياق يدل على أنَّ الصيام يعم كل ما قيل في حكمة الصيام من التقوى، فالصيام يحصل به عموم التقوى؛ لأنه لم يُخصَّص ولم يُذكر المعمول.
- كذلك إذا جاء لفظ الإيمان فإنه يعم إذا أُطلق ولم يذكر المعمول؛ فيعم كل شعب الإيمان، ولفظ الإحسان يعم كل أنواع الإحسان.
- ثم ذكر الشيخ مثالًا لحذف المعمول وأنه يُفيد العموم، وهو قوله: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، فحذف المعمول به المتكاثر به، فما قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: "ألهكم التكاثر في الأموال، ولا في الأولاد" في هذه الآية؛ قال الشيخ: فحذف المتكاثر به يعم كل ما قُصد به التَّكاثر، وهو التفاخر على الآخرين، والتَّزيُّد والتَّشبُّع بمثل هذه الأمور، وإظهار العلو على الناس، وهذا على سبيل الذَّم، ولهذا ذكر التي بعدها: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢]، قال بعض المفسرين: أي: الموت؛ لأن نهاية التكاثر موت، فيُشعركم أنَّ التكاثر لا قيمة له؛ لأنه من الأمور الدنيوية التي مبناها على الفناء والزوال، فينتهي بالموت.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الخامسة عشرة: جعل الله الأسباب للمطالب العالية مبشرات لتطمين القلوب وزيادة الإيمان)}.

- ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- في القرآن ربط الأمور بالأسباب، وذكر أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- أقام هذا الكون على نواميس -يعني: قوانين- وهذه القوانين لا تتحقق إلا بتحقق شروطها وانتفاء موانعها، وهذا يشمل الأمور الشرعية، والأحكام التي تُطلق في باب الأحكام، وفي حياتنا الدنيا، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- ربط الأمور بأسباب.
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مثال النصر؛ فالنصر مطلب من مطالب أهل الإيمان، والنصر على الأعداء لا يكون إلا بتحقق الشروط وانتفاء الموانع، فشروط النصر ذكرها الله -عَزَّ وَجَلَّ- في القرآن، وذكر أسباب النصر المعنوية والحسيَّة، فعلى أهل الإيمان أن يتعرَّفوا وأن يتحققوا من هذه الأسباب، وعليهم أن يحرصوا على انتفاء الموانع، فمن موانع النصر كما قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وفي آيات كثيرة جدًّا ذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- ذم الالتفات إلى الأسباب مع تحقُّقها، وهذا يدل على أنَّ النَّصر من عند الله -عَزَّ وَجَلَّ-، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥]؛ فمع هذه الأسباب إلا أنه لا يُلتفَتُ إليها، وإنما تُعمَل الأسباب، ويُعلَم أنَّ الإنسان يسعى بتحصيلها ولا يلتفتُ إليها.
- قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن النَّصر في بيان أنه جعله الله -عَزَّ وَجَلَّ- للبشرى ولطمأنينة قلوب أهل الإيمان في زمن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مثالًا آخر وهو الرِّياح، فذكر أنها سبب المطر، وأن الله -عَزَّ وَجَلَّ- جعلها من المبشرات، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الروم: ٤٦]، فهذه الأسباب من رحمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن جعلها مبشرات.

- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- الرؤيا الصالحة والثناء الحسَن، والتوفيق في الدنيا، وأنها مبشرة لأهل الإيمان بدوام ذلك في الآخرة وبالنجاة من النار، وبدخول الجنان، أسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن يدخلنا الجنة ويُعيذنا من النار جميعًا، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، فهنا الأسباب: الإيمان والتقوى. فشرط الولاية: الإيمان والتقوى، فالإيمان بما جاء به محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- وتقوى الله -عَزَّ وَجَلَّ.
- قال تعالى: ﴿لهم البشرى.... وفي الآخرة﴾، فأما البشرى في الحياة الدنيا ففسرت بأنها الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرَى له، وفُسِّرَت بالثناء الحسن، فالإنسان إذا عمل عملًا وأخلص فيه لله -عَزَّ وَجَلَّ- ثم سمع الثناء؛ فإنه يُسرُّ به، لا لأنه يطلب ثناء الناس، وإنما لأنه يرى أن ذلك من البشرى له بقبول هذا العمل، فهذا يبعثه على المزيد من الإخلاص ومزيد من العمل الصالح، فجعل الله -عَزَّ وَجَلَّ- له مبشرات، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].
- ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أن الشدائد مُبشرة بالفرج، والعسر مُؤذن باليسر، قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥]، قال بعض أهل العلم: لن يغلب عسرٌ يسرين.
- وقال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، وذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- مواقف الأنبياء وأهل الإيمان: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فقد يُؤخر الله النصر والفرج لحكمٍ يعلمها الله -عَزَّ وَجَلَّ- لخيرٍ للعبد في دينه ودنياه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١].
- فالمطلوب من أهل الإيمان: أن يعملوا بأسباب الفرج، وأن ينتظروا الفرج، فإن انتظار الفرج من العبادة، ولهذا فإنَّ من أُصيبَ بكربٍ أو أصابته مُصيبة فعليه أن ينتظر هذا الفرج، ويسأل ربَّه -سبحانه وتعالى- زوال هذا العُسر، ويعلم أنَّ انتظار الفرج من العبادة، ويتذكر قول الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، فما بعدَ الشدَّة إلا الفرج من الله -عَزَّ وَجَلَّ- ورحمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- قريب من المحسنين، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة السادسة عشرة: حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر وشدته في مقامات الوعيد)}.

- أفعال الشرط -أو أدوات الشرط- منها ما هو جازم، ومنها ما هو غير جازم.
  - أدوات الشرط الجازمة "إن، مَن، ما، مهما، متى، أين، أينما".
  - وغير الجازمة: "إذا، لو، لولا، أمَّا، لمَّا، كلَّما".
- ولابدَّ أن يُعرَف أن أداة الشرط لها فعلٌ ولها جواب، فحذف جواب الشرط يدل على معنى؛ فإذا حذف جواب الشرط دلَّ على معنًى، فعليكَ أن تعرف فعل الشرط وأداة الشرط وجواب الشرط.

- ذكر الشيخ مثالًا، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢].
- أداة الشرط هنا: "لو" وهي غير جازمة. وجواب الشرط محذوف
- وقال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١]، وجواب الشرط محذوف.
- فحذف جواب الشرط في الآية الأولى والآية الثانية يدلُّ على معنًى، وهو: عِظَم هذا المقام؛ لأنه مقام شديد وعظيم، ولهذا لم يجعل له جواب.
- والشرط هو: تلازمٌ بينَ جملتين وارتباطهما بواسطة أداة تسمى أداة الشرط.
- فلم يذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- جواب الشرط في قوله ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾، لعظم المقام، وشدة الوعيد.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة السابعة عشرة: بعض الأسماء الواردة في القرآن إذا أفرد دل على المعنى المناسب له، وإذا قرن مع غيره دل على بعض المعنى، ودل ما قرن معه على باقيه)}.**

- هذه القاعدة التي ذكرها الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- هي أنَّ بعض الأسماء الواردة في القرآن إذا أُفرِدَ دلَّ على المعنى العام المناسب له، وإذا قُرن مع غيره دَلَّ على بعض المعنى، ودَلَّ ما قَرن معه على باقيه؛ يعني أنَّ هذا التَّصوُّر الأولي قد لا يُفهَم إلَّا بالإتيان بهذه الألفاظ أو الأسماء التي وردت في القرآن.
- والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مثَّل بالإيمان، فالإيمان وردَ مفردًا، وورَدَ مقرونًا بالعمل الصالح، فإذا نظرتَ في القرآن لوجدتَّ أن "الإيمان" يأتي مفردًا كما في قوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ويأتي مقرونًا بالعمل الصالح ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.
  - ✸ فما أُفرِدَ دخل فيه جميع عقائد الدين، وجميع الشريعة بظاهرها وباطنها، والأحكام الشرعية الكاملة، الأعمال القلبية وأعمال الجوارح؛ فكلها تشمل معنى الإيمان.
  - ✸ والآيات التي قُرنَ فيها الإيمان بالعمل الصالح كقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]؛ فيُفسَّر الإيمان بما في القلوب، ويُفسَّر العمل الصالح بجميع الأعمال القولية والفعلية، فالإيمان هو الأعمال القلبية، والأعمال الصالح هو الأعمال الظاهرة، والأعمال الظاهرة تشمل القول والفعل مما يقوله الإنسان ومما يفعله.
- ومن عقيدة أهل السنة أن الإيمان قولٌ وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولهذا فإذا أُفرِدَ أفادَ معنًى، وإذا قُرِنَ بالعمل الصالح أفاد معنًى آخر.
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- المثال الثاني، وهو البر والتقوى.
  - ✸ فإذا أفردَ البر دخل فيه امتثال الأوامر واجتناب النواهي، يعني: ما أمر الله -عَزَّ وَجَلَّ- به وما نهى عنه كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ [البقرة: ١٧٧]
  - ✸ وإذا قُرنَ البرُّ بالتقوى؛ كان "البر" اسمًا جامعًا لكل ما يحبه الله ويرضاه، و"التقوى" اسمًا جامعًا يتناول ترك المحرمات.
- فيكون "البر" هو فعل الطاعة، و"التقوى" ترك المعصية؛ وهذا يفيدك أن "البر" إذا قُرنَ فإنه يُفهَم منه معنًى، وإذا أُفرِدَ فُهِمَ منه معنًى آخر.

- ويُمثل علماء اللغة وعلماء الأصول بلفظ "الفقير" و"المسكين"؛ والشيخ ذكر هذا المثال ولكننا لا نريد أن نطيل:
- فإذا قُرنا "الفقير والمسكين"، فيكون لهما معنى، فـ"الفقير" له حد و"المسكين" له حد؛ وأما إذا أفرد "الفقير" فيدخل في معنى "المسكين".
- إذن؛ هذه القاعدة -كما ذكرها الشيخ رحمه الله تعالى- أنَّ الاسم إذا أُفرِدَ على المعنى المناسب له، وإذا قُرِنَ دلَّ على معنًى آخر يراعيه الإنسان في قراءته لكلام الله -عَزَّ وَجَلَّ.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(القاعدة الثامنة عشرة: إطلاق الهداية والإضلال وتقييدها)**}.

- في كثيرٍ من الآيات يُخبر -عَزَّ وَجَلَّ- أنه يهدي مَن يشاء ويُضل مَن يشاء، وفي خطبة الحاجة «مَن يَهْدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، وَمَن يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له»[٧]، فهذا قد يُشكل على بعض مَن لا يعرف هذه الدلالات، وهذا نطق به القرآن، ففي كثير من الآيات يُخبر أنه يهدي مَن يشاء ويضل مَن يشاء على وجه العموم، ويعلقها على محض المشيئة، وفي بعض الآيات يذكر الأسباب المتعلقة بالعبد الموجبة للهداية والموجبة للإضلال، ومرَّ معنا أن القرآن يصدق بعضه بعضًا، ويفسر بعضه ببعض، وهذا أحسن ما يكون من التفسير.
- ففي بعض الآيات يذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- الأسباب المتعلق بالعبد الموجبة للهداية، والموجبة للإضلال؛ فدلَّ على أن ثَمَّ أسباب للهداية، وثَمَّ أسباب للضلالة، مع تعلقها بالمشيئة النافذة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الإنسان: ٣٠].
- وكذلك حصول المغفرة وضدها، وبسط الرزق وتقديره -أي تضييقه- قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [العنكبوت:٦٢]؛ فيطلقها ويجعلها متعلقة بالمشيئة ثم يقيدها بأسباب؛ وهذا من وجهين:

☑ **الوجه الأول:** لأجل كمال التوحيد، فالمؤمن بحاجة إلى العقيدة الصحيحة، وأن يعرف أن الأمور طلها بيد الله -سبحانه وتعالى- قال تعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، **فمشيئته نافذة في كل شيء، ومشيئة العبد داخلة تحت مشيئة الله -عَزَّ وَجَلَّ- فالأمر بيد الله -سبحانه وتعالى- وأنه هو المعطي والمانع، وأن أسباب الهداية لا تعدو أن تكون أسباب، وأسباب الضلال لا تعدوا أن تكون أسباب، يتعاطها المؤمن ويفعلها، لأن الله أمره بفعلها، ومع ذلك لا يتعلق بهذه الأسباب، وإنما يتعلق بمسبب الأسباب، فهو الذي يهدي من يشاء ويضل مَن يشاء، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»، وكان -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، وفي كل ركعة من الركعات يسأل المسلم ربه الصراط المستقيم** ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٦].

---

[٧] صحيح مسلم (٨٦٨).

- فاعلم أن من كمال التوحيد أن تعلم أنه هو المعطي والمانع، فلا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى -سبحانه وتعالى- قال: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]، وقال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

☑ **الوجه الثاني:** يذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- في آيات أسباب الهداية وأسباب الضلال لنفع العباد، حتى يسلك النافع من هذه الأسباب ويجتنب الضلال، قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥ - ١٠]، وهذه الآية تلاها النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّم- في بيان القدر السابق لما قال لهم: « مَا مِن نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، إلَّا وقَدْ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وإلَّا وقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً، أَوْ سَعِيدَةً»، قالَ فَقالَ رَجُلٌ: يا رَسُولَ اللهِ، أفلا نَمْكُثُ علَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ فَقالَ: مَن كانَ مِن أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إلى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَن كانَ مِن أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَسَيَصِيرُ إلى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَقالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَن أَعطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بالحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاستَغْنَى، وَكَذَّبَ بالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥- ١٠]»[٨]

- إذن؛ كلام النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّم- والقدر يفسره كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهذا يدل على أن الإنسان مطلوب منه أن يتعاطى أسباب الهداية وأن يجتنب أسباب الضلال حتى يسلم، وهذا مشاهَد في نواميس الكون، فلا يُمكن للإنسان أن تكون له الذريَّة إلا بالنِّكاح، ولا يكون له الشَّبع إلا بالرِّيِّ، ولا يكون له الشبع إلَّا بأكل الطعام، فهذه أمور ربطها الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فكذلك الأسباب الشرعية، ولهذا بين الله -عَزَّ وَجَلَّ- أنَّه لا يظلم أحد، فلابد للإنسان أن يعرف أن القدر السابق لا يعني الظلم، لأن الله لا يظلم أحدًا، وإنما يُحاسب الإنسان على ما فعله، ولهذا قال في الآية السابقة ﴿بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾، فهذا فعله، وكانت النتيجة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾.

- وقاله -عَزَّ وَجَلَّ- عن أعمال الكفار: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال عن المنافقين الذين لم يخرجوا مع النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّم- في غزوة تبوك: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]، مع ما سبق منهم من عدم إرادة الخير وعدم الاستعداد له، ولهذا قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، وقال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فحقيقة رحمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- تكون بالدخول في الجنة والنجاة من النار، وتكون للمحسنين، نسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن يرزقنا الإحسان.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

---

[٨] صحيح البخاري (١٣٦٢)، صحيح مسلم (٢٦٤٧)، واللفظ له.

الدرس الخامس



بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- {نشرع في هذه الحلقة -بإذن الله- من قول الشيخ عبد الرحمن بن السعدي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة التاسعة عشرة: الأسماء الحسنى في ختم الآيات.
- يختم الله الآيات بأسماء الله الحسنى ليدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم)}.

- هذه القاعدة التي ذكرها الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- قال عنها: (وهذه القاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها)، فإن الله -سبحانه وتعالى- ختم الآيات بأسمائه الحسنى، وهذا يدل على أنَّ الحكم المذكور له تعلقٌ بالاسم الكريم الذي خُتمت به الآية، وهذا ظاهر في أنَّ آيات الرحمة مختومة بأسماء الرحمة، وآيات العقوبة مختومة بأسماء العزة والقدرة والحكمة والعلم والقهر، ولهذا ذكر الشيخ أمثلة، وللطالب النَّبيه أن يتتبع آيات القرآن ليجد أنَّ هذه القاعدة مُطَّردة.

- والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ذكر بعض الأمثلة: قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].
- فتلاحظ أنَّ الله -سبحانه وتعالى- ختم هذه الآيات بما يناسبها من أسمائه تعالى ومن أوصافه تعالى وجلَّ، ولهذا قال عن عقوبة السرقة لَمَّا أمرَ بقطع يد السارق والسارقة: ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، فناسبَ هنا العزَّة والحكمة، وهذا بحسب السياق المناسب.
- وإن الله -عَزَّ وَجلَّ- يذكر الأحكام الشرعية وما يناسبها من الأسماء الحسنى، وهذا ظاهرٌ مطَّرد، إلَّا في مواضع معدودة نبَّه عليها أهل العلم، وهي بحسبها -كما يقولون.
- ومما ذكره الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في أواخر سورة المائدة قال الله -عَزَّ وَجلَّ- بعدما ذكر محاجَّة عيسى لربه قال -عَزَّ وَجلَّ- على لسان عيسى يوم القيامة: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، مع أنَّ المقام مقام مغفرة، ولكنه ذكر اسم "العزيز الحكيم" المتضمن لصفتي العزة والحكمة؛ لأن المقام مقام حساب وغضب، فلهذا ناسبَ أن تذكر هذه الصفة، ولهذا خاطب عيسى ربه بهذه الأسماء الحسنى المتضمنة لتلك الصفات العلا.
- <u>هذه القاعدة تُفيد طالب العلم وتفيد المؤمن والمؤمنة أنَّه في حال الدعاء أن يدعو الإنسان ربه -عَزَّ وَجلَّ- بما يُناسب المقام أدبًا مع الله -عَزَّ وَجلَّ- وطلبًا لأثر تلك الصفة.</u> فمثلًا إذا طلب المغفر قال: يا غفور اغفر لي، يا رحيم ارحمني، يا توَّاب تُبْ عليَّ، وهكذا؛ فينتقي من أسماء الله -عَزَّ وَجلَّ- ما يناسبها، وهذا من آداب الدعاء، والتي اطَّردَ حديث النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في أدعيته الشريفة على ذكره، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه أهل الإيمان عند دعاء ربهم -سبحانه وتعالى.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة العشرون: القرآن كله محكم باعتبار، وكله متشابه باعتبار، وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث)}.**

- هذه القاعدة جليلةُ النفع، وعظيمة الفائدة؛ بل إني أقول: إن ضبط هذه القاعدة يفسر كثيرًا من الإشكال، بل إن الجريان مع هذه القاعدة وفهمها على وجهها الصحيح -بإذن الله- عصمةٌ للإنسان من الوقوع في الفتن، فلابدَّ لطالب العلم أن يفهم هذه القاعدة، ولهذا ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- هذه القاعدة فقال: **(القرآن كله محكم باعتبار)**، يعني: وجه.
- قال: **(وكله متشابه باعتبار، وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث)**. كيف نفسر هذا؟

الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- استدلَّ على ذلك بآيات، فالقرآن وُصف بأنه محكم، ومتشابه، ومحكم ومتشابه.

☑ **أما كونه محكم**: فإن الله -عَزَّ وَجلَّ- قال: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فالمراد بالإحكام هنا: أنه في غاية الإحكام والانتظام، إذن هو مُحكَمٌ كله، فأخباره حقٌّ وصدقٌ، ولا تناقضَ فيها ولا اختلاف، قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

☑ **ووصفه بأنه متشابه باعتبار آخر**: فإن الله -عَزَّ وَجلَّ- قال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، يعني أنَّ القرآن متشابه من وجه.

◆ **ما المراد بالتشابه هنا؟**

- قال أهل التفسير: مُتشابه في الحُسنِ والصدق والبركةِ والنَّفع، إلى غير ذلك من صفات القرآن العظيم الذي هو كلام الله -عَزَّ وَجلَّ- ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].
- قوله: (وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث)، فمنه آيات محكمات كما قال الله -عَزَّ وَجلَّ- في أوائل سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، إذن؛ منه مُحكَم ومنه ما هو متشابه، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجلَّ- مبينًا سلوك مَن يسلك اتِّباع المتشابه، ومَن يسلك الالتزام بالمُحكَم، فقال -عَزَّ وَجلَّ-: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، يعني آمنوا بالمحكم والمتشابه. فهذا الوصف هو معنى المُحَكم في هذه الآيات.

✸ **فالمُحكَم**: ما بانت به الشرائع والأصول والقواعد والثوابت.

- قال أهل العلم: المُحكَم هو الواضح البيّن، الذي بانت به الشرائع والقواعد والثوابت في الشريعة، كأركان الصلاة، أركان الصيام، قواعد وأصول المحرمات، والمنهيات، أصول الواجبات؛ فهذه بانت بالمُحكمَات.

✸ **والمتشابه هنا**: هو المُجمَل ومحتمل المعنى، فهو يحتمل معنًى غير المعنى الظاهر، ويحتمل أوجه، ولهذا أمر الله -عَزَّ وَجلَّ- بالالتزام بالمحكَم، وبردِّ المتشابه مع الإيمان به إلى المحكم، وألا تكن -يا عبد الله ويا أمة الله- ممن في قلبه زيغ، لأن الزيغ مرض وانحراف فتتبع المتشابه وتُعرض عن المُحكَم، وهذا سمة أهل البدع الذين خالفوا منهج الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- ومنهج الصحابة.

- منهج الصحابة والتابعين لهم بإحسان: الالتزام بالمُحكم، ورد المتشابه إلى المحكم.
- ويُمكن أن يُمثَّل لهذا بقول الله -عَزَّ وَجلَّ-: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣]، فما تشابه من المعنى يُرد إلى المحكم من النصوص، وهذه الآية قد يُفهم منها أن الله -عَزَّ وَجلَّ- يُسيِّرُ الهداية والضلال دونَ اعتبار، فهذا المعنى متشابه، والصواب أن يُرد المعنى إلى المحكم، والمُحكم في هذا قول الله -عَزَّ وَجلَّ-: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فهدايته لمن اهتدى وفق الحكمة والعدل، وإضلاله لمن ضل وفق الحكمة والعدل، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجلَّ- في بيان هذا المجمل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥ - ٨]، فبانَ بهذه المحكمات مان تشابه من الآيات، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجلَّ- مبيّنًا أنَّ من أسباب الإضلال هو عمل الإنسان، قال الله -عَزَّ وَجلَّ-: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].
- إذن؛ هذه قاعدة مُهمَّة مطَّردَةٌ، ينبغي لطالب العلم أن يفهمها فهمًا جيِّدًا، وينبغي لكل مؤمنٍ ومؤمنة أن يفهم القرآن على وجهه وفق فهم الصحابة والتابعين، وأن يحذروا ممن سماهم الله -عَزَّ وَجلَّ- ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا

﴿تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧] وقال عنهم عبد الله بن مسعود -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم"، وهؤلاء هم الذين يشبهون على الناس بالنُّصوص، فإنهم لا ينطلقون في هدم الثوابت وقواعد الشريعة إلَّا باتّباع المتشابه، وما ضلَّ مَن ضلَّ إلَّا باتِّباع المتشابه، وما هُديَ من هُديَ وثبت على السنة إلا بالتزام المحكم وردّ المتشابه إلى المحكم.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الحادية والعشرون: القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد)}.

- قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد)، فالعرف مطلوبٌ مراعاته، والعادة محكَّمة.
- ونقول: من الأحكام ما لا يتغير باختلاف الزمان والمكان والحال؛ لأن الإسلام صالحٌ لكل زمانٍ ومكانٍ، وصالح للزمان والمكان في كل زمان ومكان، فالشرائع المفروضة كالصلاة والزكاة والحج والصيام وغيرها؛ هذه الأحكام لا تتغير بتغير الأحوال والأوقات وتغير الزمان، وهذا وقع عليه إجماع أهل العلم.
- وكذلك المنهيات، كنهي الله -عَزَّ وَجلَّ- عن الشرك والزنا وقتل النفس بغير حق، إلى غير ذلك مما نهى الله -عَزَّ وَجلَّ- عنه؛ فإنه لا يتغير بتغير الزمان والمكان.

◆ ما الذي يُجرى فيه على العرف والعادة؟

- قال أهل العلم: ثَمَّ أوامر تختلف في حدها -وليس في أصلها- ونوعها بحسب الحال والزمان، فمردها إلى العرف.
- وهذا الكلام من الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- كلامٌ سديد أصولي لا يصدر إلا من فقيه، ومثَّل الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بالمعاشرة بين الزوجين -يعني العشرة بين الزوجين- قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، هذه المعاشرة أطلقها الله -عَزَّ وَجلَّ- ولم يحدّها بحدٍّ؛ لأن المعاشرة تكون بالمعروف -يعني: بالعرف- والعادة والمعروف تختلف في كل زمان ومكان، فتختلف المعاشرة بالمعروف في زمن عن زمن آخر، والمعاشرة بالمعروف في زمان واحد تختلف من مكان عن مكان آخر، والمعاشرة بالمعروف بحسب حال الشخص تختلف من حاله إذا كان فقيرًا وإذا كان غنيًّا، فلا يمكن أن تكون العشرة بالمعروف من الغني كالعشرة بالمعروف من الفقير؛ لأن الله -عَزَّ وَجلَّ- قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧] ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].
- إذن؛ هذا مَرَدُّه إلى العرف بحسب الحال والزمان والمكان والشخص، فهذا متقرر عند أهل العلم، وعليه اتفاق أهل العلم، وهذا يدلك على أن الإسلام كامل في تشريعاته وأحكامه، فأطلقَ ما يحتاج إلى إطلاق، وحدَّ ما يحتاج إلى حدٍّ.
- ومما يذكره الفقهاء في مثل هذا: أن الله -عَزَّ وَجلَّ- قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وأجمع أهل العلم أن الحج إنما يجب على المستطيع، وذكر الفقهاء -رَحِمَهُم اللهُ تَعَالَى- أن الاستطاعة أن يجد زادًا وراحلة صالحين لمثله، وضع خطين في قوله: "صالحين لمثله"، يعني بما يناسبه، فإذا كان غنيًّا فلابدَّ أن يجد زادًا يناسبه، وراحلة تناسبه، فلو وجدَ أقل من ذلك فلا يُعتبر عند

الفقهاء أنه مُستطيع، لابدَّ أن يجد زاد وراحلة صالحين لمثله، وهكذا الفقير يجد راحلة وزاد صالحين لمثله حتى يجب عليه الحج.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثانية والعشرون: في مقاصد أمثلة القرآن)}.

- الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- قال: إنَّ الله أكثر من الأمثلة في القرآن، وهذه الأمثلة في غاية النفع، ومطلوب ممن يقرأ كلام الله -عَزَّ وَجلَّ- أن يتدبر هذا القرآن، وأن يقف مع هذه الأمثال، وأن يعتبر ما فيها من العلوم النافعة، فإن الأمثال التي ذكرها الله -عَزَّ وَجلَّ- في كتابه في غاية النفع، ومثَّل الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بأمثلة.
- وقبل ذلك لابدَّ أن نقرر قواعد، ولابدَّ لكل مسلم أن يفهمها وأن يعيها جيدًا، وهي أن القرآن احتوى على أعلى وأكمل العلوم؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ويقول: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].
- والقرآن احتوى في أساليبه على أحسن طرق التعليم، ولهذا فإنَّ القرآن استخدم أسلوب المثل لتقريب المعنى في آياتٍ كثيرة.
- **من أمثلة ذلك:**

☑ الله -عَزَّ وَجلَّ- مثل الوحي بالماء النازل من السماء وهو المطر.

☑ ومثل كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة.

☑ ومثل المشرك بالعبد الذي له أكثر من سيد، قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]، الموحد يعبد إلهًا واحدًا، والمشرك يعبد آلهة متعددة.

☑ ومثَّل بضعف الآلهة التي تُعبَد من دون الله -عَزَّ وَجلَّ- على اختلاف تنوعها وأجناسها بأنها لا تنفع ولا تضر، ولا تستطيع عون أي إنسان، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣] الله أكبر! بلاغة القرآن وعظيم هذه الأمثلة.

☑ مثل أعمال الكفار بسراب قيعة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ [النور: ٣٩].

☑ ومثل للمنفقين بقوله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤]، فوصفهم بأنهم خشب مسندة.

☑ ووصف اليهود الذين لا يعملون بما في التوراة بقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

☑ ومثل ما يفعله الكفار تجاه دعوة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- بقوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: ١٧١].

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثالثة والعشرون: إرشادات القرآن على نوعين)}.

- الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في هذه القاعدة ذكر أن **إرشادات القرآن وتوجهات الرب -سبحانه وتعالى- في كتابه العظيم على وجهين:**
  - **الوجه الأول:** أن يُرشد إلى أمرٍ ونهيٍ وخبر معروف شرعًا أو عرفًا، وقد تقدَّم الكلام على هذا.
  - **الوجه الثاني:** أن يُرشد إلى استخراج الأشياء النافعة من أصول معروفة، ويُعمل الفكر فيها، فإنه يستفيد منها المنافع العظيمة، ولهذا قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وهذه قاعدة شريفةٌ جليلة القدرِ).
  - ☑ **النوع الأول:** فهو أكثر الأمور الخبرية والحكميَّة، فإما أخبار وإما أحكام وشرائع.
  - ☑ **النوع الثاني:** -وهو المقصود من القاعدة: مثَّل المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- له بالتفكر في خلق الله -عَزَّ وَجلَّ-، فإن الله -عَزَّ وَجلَّ- أمر بالتفكر لمعانٍ عظيمة، فإن التفكر يفيد علومًا نافعة، منها:
  - ✸ **العلم الأول:** التفكُّر، فيتفكر الإنسان لأي شيءٍ خُلق، ولأي فائدة خُلق، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان ١- ٣]، فهذا التفكر يبعثك على الانتفاع بالإيمان.
  - ✸ **العلم الثاني:** الذي أرشد الله -عَزَّ وَجلَّ- لاستخراج الأشياء النافعة من القرآن ومن توجهات الرب -سبحانه وتعالى: الانتفاع بهذه التوجهات واستخراج المنافع منها في خيري الدنيا والآخرة، ولهذا ذكر الله -عَزَّ وَجلَّ- أصول الحياة، وأمر -عَزَّ وَجلَّ- بالإعداد لمقاتلة الكفار، فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فجاء الإعداد بصيغة النكرة في قوله ﴿قُوَّةٍ﴾، وهذه النكرة تعم كل قوَّة، ولهذا فإن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- فسَّر هذه القوة فقال: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»، فصلَّى الله وسلم عليه.
- إذن؛ أرشدكَ الله -عَزَّ وَجلَّ- إلى إعداد الأمَّة إعدادًا معنويًّا وإعدادًا حسيًّا، فإن الله ربط الأمور بأسباب، فإذا أخذ أهل الإسلام بأسباب القوة كان لهم التَّمكين، وأسباب القوة معنوية وحسيَّة، والله -عَزَّ وَجلَّ- في القرآن أرشد إلى اتِّخاذ الأسباب الحسيَّة والمعنويَّة، ولهذا قعَّد العلماء قاعدة فقالوا: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.
- والله -عَزَّ وَجلَّ- أرشدَ إلى ما به قوام الناس واستقامتهم، واستقامة أحوالهم، والاستقرار وتحقق السِّلم في الأمَّة، قال -عَزَّ وَجلَّ: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، ونهى عن الظلم وحذَّر منه فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

- وهذا تقرير لأسباب التمكين، فإنَّ من أسباب التَّمكين وأسباب السِّلم والأمان للأمة وللدولة وللمجتمع: إقامة العدل، والله -عَزَّ وَجلَّ- أمر بالعدل حتى مع العدو، فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:٨]، فالعدل أساس قيام الدول والأمم.

{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الرابعة والعشرون: التوسط والاعتدال وذم الغلو)}.

- هذه قاعدة عظيمة النفع، ولو نظرنا فيها لوجدنا أنها شعارٌ يرفعه كل أحد، فكلٌّ يدَّعي هذا الشعار، وهو شعار الوسطيَّة، فالوسطيَّة كلمة مجملة، ولكن الوسطية في القرآن ليست شعارًا؛ بل هي حقيقة، فالإسلام دين الوسط، قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فالأمَّة الوسط هي أمة الإسلام، وهي أمَّة الخيار والعدل، والقرآن يُرشد إلى التَّوسُّط والاعتدال في الأمور، وبذم التقصير والغلو ومجاوزة الحد، لأنَّ من طبيعة النفوس إما أن تكون غالية أو مفرِّطة، والله -عَزَّ وَجلَّ- لا يجري على طبائع النفوس، بل يأمر بالجريان وفق أمره تعالى، ولهذا جاءت الأوامر والنواهي بمخالفة الهوى، فالهوى يُميلك إلى أحد طرفي النقيض، إما الإفراط -وهو الغلو- أو التفريط، ولهذا أمر الله -عَزَّ وَجلَّ- بالعدل فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، والعدل هو الوسط. وقال -عَزَّ وَجلَّ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وحذر الله -عَزَّ وَجلَّ- من الغلو وبخاصَّة الغلو في الدين، فهو مذموم، قال -عَزَّ وَجلَّ: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]، فحصل الغلوم من أهل الكتاب، فذمَّ الله -عَزَّ وَجلَّ- الغلو في الأنبياء.
- ومما يُذكر من الغلو في الأنبياء: ما حصل من النصارى، فإنهم قالوا: إن عيسى ابن الله -وهذا غلو- لأمورٍ رأوها، ولإلقاء الشيطان في قلوبهم هذا، فزادت محبَّتهم لعيسى وغلو فيه حتى زعموا أنه ابن الله؛ وغلو فيه وفيه أمِّه، تعالى الله عما يقولون.
- قال الله -عَزَّ وَجلَّ: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وكونهما يأكلان الطعام فهذا لابدَّ له من إخراج، وهذا يتنافى تمامًا مع الألوهية، فأشار الله -عَزَّ وَجلَّ- إلى هذا المعنى اللطيف العظيم في القرآن، ولهذا كفَّر الله -عَزَّ وَجلَّ- النصارى فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].
- ونهى الله -عَزَّ وَجلَّ- عن الغلو في جانب العبادات، ونهى النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- عن الغلو فقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا عبد الله ورسوله**»، صلى الله وسلم على نبينا محمد.
- كذلك أمر الله -عَزَّ وَجلَّ- بالوسط في جانب المعاملات المالية، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، فتأمَّل هذه الآية يا شيخ عبد الرحمن، وتأمل أخي المشاهد وأختي المشاهدة هذا التوجيه القرآني العظيم، وهو أن تكون متوسطًا في الإنفاق في جانب المال، فلا تُمسك ولا تُرسل، لابدَّ أن يكون الإمساك بقدر والإرسال بقدر، لأنك إذا كنت على وضع الإمساك فستكون ملومًا من مجتمعك وأقاربك، وستتحسَّر أنك لم تنتفع بهذا المال عندما تشيب، وعندما تذهب بك الليالي والأيام.

- والله -عَزَّ وَجلَّ- ذمَّ التبذير هذا فقال: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧] فإذا تصرفت في هذا المال بإسراف وتبذير، ولم تمسكه بقدرٍ؛ فإنَّك ستكون ملومًا ومتحسرًا، فسيلومك الناس الذين كنت تنفق عليهم وتبذل هذا المال لهم، وستتحسر أنك عند الحاجة إلى هذا المال لم تجده، وعند الحاجة غلى مَن أنفقتَ عليه وجدتَّ أنه باخلٌ عليك، فانت على كلا الحالين ملوم محسورٌ.
- ولهذا وجَّهك الله -عَزَّ وَجلَّ- إلى أن تكون وسطيًّا في أمورك كلها، في عباداتك، وفي تعاملاتك، وفي محبَّتك وبغضك، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجلَّ- في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يعني: لا يجملنَّكم. قال: ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾، يعني: بغض قوم. قال: ﴿عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، فأمركَ الله -عَزَّ وَجلَّ- بالاعتدال حال البغض، وألا يحملك هذا البغض على الاعتداء والعداون، فإنَّك إذا اعتديتَ فأنت غالٍ في بغضك، فكنْ في حبِّكَ معتدلًا، وفي بغضك معتدلًا، كنْ وسطيًّا كما أمرك الله -عَزَّ وَجلَّ- وفق ما جاء عن الله في كتابه، وما جاء عن رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ.
- وبالجملة؛ فما أمر الله بشيءٍ إلَّا كان وسطًا بينَ خُلقين ذميمين، إمَّا تفريط وإمَّا إفراط، ولهذا فإن شعار الوسطية لا ننطلق منه بشعارٍ دعائي، وإنما بواقع ملموس في كتاب الله، وفي سنَّة رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ.
- ولهذا فإن الشريعة وسطٌ بينَ الشرائع، وأهل السنة والجماعة وسطٌ بينَ الفِرَق، فإن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- قال: «ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين وفرقة كلها في النار إلا واحدة». قالوا: يا رسول الله، مَن هي؟ قال: «ما أنا عليه اليوم أنا وأصحابي».

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الخامسة والعشرون: حدود الله قد أمر بحفظها ونهى عن تعديها وقربانها)}.

- الله -عَزَّ وَجلَّ- أمر بحفظ الحدود، وهي ما أمر الله -عَزَّ وَجلَّ- به وما نهى عنه، قال تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].
- **فحدود الله:** هي ما حدَّه الله لعباده من الشرائع الظاهرة والباطنة التي أمرهم الله بفعلها، والمحرمات التي أمرهم الله -عَزَّ وَجلَّ- بالانتهاء عنها، فهي الأوامر والنواهي.
- **فالحفظ لحدود الله هو:** أداء هذه الحقوق وتركُ هذه المحرمات، وعدم قربان هذه المحرمات ولو من قريبٍ، وذلك متوقف على العلم الواجب، فلابد للإنسان أن يعلم حدود الله.
- قال العلماء: ما لا يسع المكلف أن يجهله. وقالوا: المعلوم من الدين بالضرورة؛ فهذا يدل على أنه من العلم العيني أن يعلم المسلم وأن تعلم المسلمة حدود الله -عَزَّ وَجلَّ.
- ولهذا فإن الله أثنى على الحافظين لحدوده فقال: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين

الدرس السادس



بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

❑ {نشرع في هذه الحلقة -بإذن الله- من قول الشيخ عبد الرحمن بن السعدي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة السادسة والعشرون: الأحكام في الآيات المقيدة)}.

- نقول في هذه القاعدة: الأصل أنَّ الآيات التي فيها قيودٌ لا تثبت أحكامها إلا بوجود تلك القيود إلا في آيات يسيرة.
- القيد مُعتَبرٌ إلا في آيات يسيرة لا يُعتبَر هذا القيد، وله أجوبة، والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ذكرَ أمثلةً وسنذكرها حتى تتضَّح للمشاهد والمشاهدة وطالب العلم.
- من الآيات التي تذكر في ذلك: قول الله -عزَّ وَجلَّ: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، قُيِّد هذا الدُّعاء بأنَّه لا برهان له به، مع أنَّ الدَّاعي لغير الله ليس عنده برهانٌ في دعوته لغير الله -عزَّ وَجلَّ- لا عقلي ولا شرعي.

قال أهل العلم: بيَّنه لبيان شناعة الشِّرك.

- والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يقول: (يقول المفسرون: هذا قيدٌ غيرُ مراد).

✓ ويقول الشيخ: هذا لا يُناسب مع القرآن، فيرى أنَّ هذا التَّعبير غير مناسب من المفسرين، ويرى أنَّ القيد مُراد لبيانِ أنَّ الدَّاعي لغير الله -عزَّ وَجلَّ- لا برهان له به، فإنَّ غالب الدعاء أنه بغير برهان عقلي ولا شرعي، ولا يُمكن أن يكون له برهان، وسيأتي مع الآيات ما يُبيّن الأحكام الشرعية في هذا، هل القيد مراد أو غير مراد؟ وهل القيد خرج مخرج الغالب -كما يُعبر بعض المفسرين- أو لا؟

✓ بعضهم يُعبِّر ويقول: "قيد غير مراد"، ثم يُعلِّل بأسباب لأجل هذا القيد، ويختلفون في التَّوجيه، ولكن الصحيح أنه مُراد وله معانٍ وأسرار ولطائف عظيمة بلاغيَّة وشرعيَّة حكميَّة.

- أُبيّن لك هذا في قوله -عزَّ وَجلَّ: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، ذكر الله -عزَّ وَجلَّ- الرَّبيبة، وهي بنت الزَّوجة، فكونها في حَجره أو في غير حَجره فليس قيدًا في التحريم، يعني: أنَّ الربيبة إذا كانت عند الزَّوجة ومع الزوج في البيت أو كانت خارج البيت؛ فهل هذا قيدٌ مُراد أو معتبر؟

الجواب: هذا ليس قيدًا، وإنما لبيان تشنيع الزَّواج منها، يعني كيف يحل له الزواج بها وهي في موقع البنت، سواء كانت في حَجره أو لم تكن في حَجره.

- إذن؛ هذا القيد فيه سر لطيف، فهذا تعليل للتَّحريم، فقول الله -عزَّ وَجلَّ: ﴿فِي حُجُورِكُمْ﴾ ليس لبيان أنه إذا لم تكن في حَجره فإنه يجوز له أن يتزوجها كما نُقل من الأقوال الشَّاذَّة التي لا تصح، فقد رُويَت عن علي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وهذا لا يصح عنه.

- إذن؛ هذا قولٌ شاذٌّ، وهو أنَّ الربيبة إذا كانت في غير حجره فإنها تحل للزَّوج، ولهذا ذكر الله -عزَّ وَجلَّ- هذا القيد لبيان شناعة أن تكون حلالًا لأنها في مقام البنت.

- وهذا بخلاف القيد الآخر في المحرمات وهو الدخول، قال تعالى: ﴿مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، فهذا القيد مُراد ومُؤثّر في الحكم، وهذا من كلام الفقهاء -رَحِمَهُم اللهُ تَعَالَى- من الاعتبار في الآيات، فبنت الزَّوجة لا تحرُم إلَّا بشرط الدخول على الأم، فإذا دخل بأمها تحرم عليها، فإذا عقدَ على الأم فإنَّها لا تحرم.

- **ولهذا يُقعِّدون بالقاعدة**: العقد على البنات يُحرِّم الأمهات، ولا عكس.

إذن؛ الدخول مؤثِّر، فإذا دخل بالمرأة حرمت عليه ابنتها. وذكر العلماء قواعد في المحرمات.

- قول الله -عزَّ وَجلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١].

فالقيد هنا هو: خشية الفقر.

◆ هل معنى هذا أنه إذا لم يخشَ الفقر له أن يقتل؟

- لا، وإنما هذا القيد لبيان شناعة القتل لمن جُبلت النفوس على محبته والشفقة عليه، فكيف تقتله لأجل خوفك من الفقر.

- ولهذا يقول العلماء في التعبير عن هذا القيد: إنه خرج مخرج الغالب.

- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أمثلة كثيرة جدًّا، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣].

◆ فهل يعني ذلك أنَّها إذا لم ترد التَّحصُّن فله أن يُكرهها على البغاء؟

- لا، وإنما هذا خرج مخرج الغالب -كما يقول بعض العلماء.

☑ **السؤال الثالث:**

القيد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ لبيان شناعة القتل لمن جُبلت النفوس على محبته والشفقة عليه.

صواب

- قال الله -عزَّ وَجلَّ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١]، فهل حكم قصر الصلاة مُرتبط بالخوف من الكفار؟

لا، وإنما هذا القيد غير مراد.

- وقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١]، فهل ثَم قتل للأنبياء بحق؟

لا، وإنما لبيان أنهم يقتلون الأنبياء بغير حق، مع أن الأنبياء جاءت لهدايتهم.

- وقال -عزَّ وَجلَّ- في الرهن: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]. فهذا القيد خرج مخرج الغالب ولبيان السبب، فيجوز الرهن في الحضر والسفر -كما قال الفقهاء.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة السابعة والعشرون: المحترزات في القرآن تقع في كل المواضع في أشد الحاجة إليها)}.

- إذن؛ الله -عزَّ وَجلَّ- يحترز أو يذكر استثناءات لعظيم الحاجة إليها، فقال الله -عزَّ وَجلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]، وهذا لأن الحاجة ماسَّة لهذا القيد؛ لأنَّ بعض القاعدين عن الجهاد من المعذورين، استثناهم الله -عزَّ وَجلَّ- بعد ذكر القاعدين، وهذا جاءت النصوص به، فقال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَقْوَامًا خلفَنَا بالمدِينةِ مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلاَ وَادِيًا إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»[٩]، فدل على أنَّ مَن عذره الله -عزَّ وَجلَّ- عن المشاركة في الجهاد فإنه داخلٌ في الأجر بحسب نيَّته، وهذا يدل على أن نيَّة المؤمن أبلغ من عمله.

- وقال الله -عزَّ وَجلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠]؛ ولأنه ربما يتوهَّم أحدٌ أنَّ مَن أنفق بعد فتح مكَّة لا تكون له الجنة، قال الله -عزَّ وَجلَّ: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

---

[٩] صحيح البخاري (٢٨٣٩).

- وكذلك من المحترزات النَّافعة التي يذكرها الله -عزَّوَجلَّ- ونحن في أمس الحاجة إليها قوله -عزَّوَجلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وأعقبه بقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، فدلَّ على أنَّ الاهتداء والهداية متعلقة بعلم الله -عزَّوَجلَّ- وبحكمته -سبحانه وتعالى.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثامنة والعشرون: في ذكر الأوصاف الجامعة التي وصف الله بها المؤمن)}.

- أولًا لابدَّ أن يُعلَم أنَّ مقامَ الثَّناء في القرآن هو على الإيمان المطلق الذي رتَّب الله عليه كل خيرٍ في الدنيا والآخرة، قال الله -عزَّوَجلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال -عزَّ وَجلَّ: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٣، ٤]، فهذا وصفٌ للإيمان المطلق، والمراد به الإيمان الكامل الذي يُطلَب من المؤمنين أن يتَّصفوا به، ولهذا وصف الله -عزَّ وَجلَّ- في آيات كثيرة أهل هذا الإيمان، ووصف أنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، وذكر الله -عزَّ وَجلَّ- أنهم على ربهم يتوكلون، وذكر أوصافًا كثيرة جدًّا؛ لأنه مطلوب من أهل الإيمان أن يتَّصفوا بهذا الإيمان، الذي هو الإيمان المطلق.
- ثم ذكر -عزَّوَجلَّ- مطلق الإيمان، **وفرق بين الإيمان المطلق، ومُطلق الإيمان:**
  - ❖ **مُطلق الإيمان:** هو الذي يجري فيه الحث على الاتِّصاف به لأهل الإيمان، وهذا يدخل فيه مسلم ومسلمة وكل مؤمن ومؤمنة وإن ضعُفَ إيمانه، فهو على سبيل الحث على الصدق، ومنه قوله -عزَّ وَجلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].
  - ❖ **الإيمان المطلق** يأتي في آيات كثيرة، وهو للخُلَّص من عباده -عزَّوَجلَّ.
- إذن؛ الإيمان المطلق لا يدخل فيه كل مُؤمن، وأمَّا مطلق الإيمان فإنه يدخل فيه المسلم والمؤمن والمحسن.
- وحتَّى في السنَّة النبوية فإن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- كان يحث أهل الإيمان بوصف الإيمان، يقول -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «مَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فلا يُؤْذِ جارَهُ، ومَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، ومَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أوْ لِيَصْمُتْ»[١٠]، إلى غير ذلك من النصوص التي يُخاطب فيها النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- أمته بمطلق الإيمان.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة التاسعة والعشرون: في الفوائد التي يجتنيها العبد في معرفته وفهمه لأجناس علوم القرآن)}.

- خلاصة هذه القاعدة: أنَّ القرآن مُشتملٌ على علوم، وأجل هذه العلوم هو:
- **علم التوحيد، فهو مشتمل على الأنواع الثلاثة:**

---

[١٠] أخرجه البخاري (٦٠١٨) واللفظ له، ومسلم (٤٧).

- **توحيد الربوبية:** وهو توحيده تعالى بأفعاله، كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والتدبير، ولهذا تجد الله -عزَّ وَجلَّ- ذكرها في كتابه في مواضع متفرقة.
- **توحيد الألوهية:** وهو أنه المستحق للعبادة -سبحانه وتعالى- ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].
- **توحيد الأسماء والصفات:** ويدل عليه قوله -عزَّ وَجلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الصمد].

- ما يتعلق بالعقائد وصفات الرسل وما هم عليه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، إلى غير ذلك من صفات الرسل.
- من علوم القرآن: علم أهل السعادة وأهل الشقاوة، قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، فذكر الله أوصافهم وأسباب السعادة، وأسباب النجاة، وأسباب الحماية، ثم ذكر الله -عزَّ وَجلَّ- أسباب الشقاء من التَّنكُّب عن طريق الله -عزَّ وَجلَّ- والتَّكذيب لرسل الله -عزَّ وَجلَّ.
- الإيمان بالآخرة، وما ذكره الله -عزَّ وَجلَّ- من الصراط والميزان، قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وذكر الله -عزَّ وَجلَّ- الجنة وما فيها، وذكر النار وما فيها، وحذر الله -عزَّ وَجلَّ- من أسباب دخول النار، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣١، ٣٣]، آيات كثيرة جدًّا أخبر الله فيها بذلك.
- علم الأمر والنَّهي.
- كل هذه العلوم تكون على وفق مراد الله -عزَّ وَجلَّ- كما أخبر الله، وكما فسَّرها النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثلاثون: أركان الإيمان بالأسماء الحسنى ثلاثة: إيماننا بالاسم، وبما دل عليه من المعنى، وبما تعلق به من الآثار)}.**

- هذه قاعدة لطيفة جدًّا، ذكر أركان الإيمان بالأسماء الحسنى، فالله -عزَّ وَجلَّ- في القُرآن يُسمي نفسه بأسماء، ويصف نفسه بصفات، وكلامنا الآن عن أسماء الله -عزَّ وَجلَّ- فقال المؤلف: إن أركان الإيمان بالأسماء الحسنى في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهي:

✸ **الركن الأول:** الإيمان بالاسم.

✸ **الركن الثاني:** الإيمان بما دلَّ عليه من المعنى، وأنَّ هذه الأسماء لها معانٍ، وليست أعلام مترادفة كما يقول الجهميَّة والمعتزلة.

✸ **الركن الثالث:** الإيمان بما تعلق بهذا الاسم من الآثار، فكل اسمٍ من أسماء الله -عزَّ وَجلَّ- له أثر، ومن أثره أنَّك تدعو الله -عزَّ وَجلَّ- به وأن تمتثل ما فيه.

- قال الشيخ: **(وفي القرآن الكريم من الأسماء الحسنى ما يزيدُ عن ثماني اسمًا)**، فيجب الإيمان بها من وجوه ثلاثة متلازمة، مرَّت معنا هذه الأركان.
- **على سبيل المثال:** اسمه تعالى: "العليم"، فالله -عزَّ وَجلَّ- قال: ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، فأركان الإيمان بهذا الاسم:

✸ **أولًا:** أن تؤمن أن من أسمائه تعالى: "العليم"، وأن تتعبَّد الله تعالى بهذا الاسم، فلك أن تسمي ابنك "عبد العليم"، ولك أن تدعو الله -عزَّ وَجلَّ- بهذا الاسم فتقول: يا عليم بما في الصدور.

✸ **ثانيًا:** الإيمان بما دلَّ عليه من الوصف، فإذا كان عليم فإنه ذو علمٍ، وهذا العلم لا يُماثله علم المخلوق الذي يفنى ولا يحيط بشيء، بل إنَّ علمه تعالى أحاط بكل شيء، ولا يُماثل علم المخلوق؛ لأن الله -عزَّ وَجلَّ- في أسمائه وفي صفاته لا يُماثل المخلوقين، قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

✸ **ثالثًا:** الإيمان بما دلَّ عليه من الأثر، وهو أن علمه محيطٌ بكل شيء، ولا يعزبُ عن علم الله شيء، فإذا كان الله -عزَّ وَجلَّ- من أسمائه "العليم" فإنه يعلم ما تخفي الصدور، ويعلم ما تسرُّ به، وهذا يُوجب عليك أن تخشاه، وأن تمتثل لأمره في حال الغيب وحال الشهادة.

- وذكر أهل العلم أن هذه الأركان الثلاثة تترتب على الأسماء المشتقَّة، والمشتق يكون دالًّا على المعنى الذي اشتُقَّ منه، فإذا كان الاسم مشتقًّا من مصدرٍ متعدٍّ دلَّ على هذه الوجوه الثلاثة، مثل "العليم، الرحيم"، فلك أن تأخذ من هذا الاسم هذه الوجوه الثلاثة المتلازمة.
- وإذا كان اسم الله -عزَّ وَجلَّ- مشتق من مصدر لازمٍ فلا يتعدَّى مسمَّاه إلَّا إلى وجهين:
  - ➢ **أولًا:** الإيمان بالاسم.
  - ➢ **ثانيًا:** ما دلَّ عليه من الوصف.
- وقاعدة التفريق بين المصدر المتعدي والمصدر اللازم ذكرها الشيخ محمد بن صالح العثيمين في "القواعد المثلى"، ولكن هناك ثَمَّ ملحوظة مهمَّة جدًّا، وهي أنَّ **أهل اللغة مختلفون في أصل الاشتقاق إلى قولين:**
  - ☑ أن المصدر هو الأصل.
  - ☑ أن الفعل هو الأصل.
- ما يهمنا أن نعرِّف الفعل سواء كان الفعل لازم أو متعدٍّ، لأنه يترتب عليه الأثر، حتى نعرف الفعل اللازم الذي لا يؤخذ منه إلا وجهين وما يُؤخذ منه ثلاثة وجوه.
  - ☑ **الفعل اللازم:** هو ما لا يتعدى أثرُ فاعله، ولا يتجاوز إلى المفعول به -هكذا قال أهل اللغة.
  - ☑ **أما الفعل المتعدي:** هو ما يتعدى أثرُ فاعله ويتجاوز إلى المفعول به، يعني يحتاج فاعل ومفعول.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الحادية والثلاثون: ربوبية الله في القرآن على نوعين: عامة وخاصة)}.**

- هذا واضحٌ وجليٌّ، فالربوبيَّة العامَّة كقول الله -عزَّ وَجلَّ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وهي عامَّة لكل الخلق، برهم وفاجرهم، عاصيهم ومطيعهم، مؤمنهم وكافرهم، ومقتضاها أنَّ الله -سبحانه وتعالى- هو الخالق لهم والرازق لهم، فهذه ربوبية عامَّة لا تتغير بتغير حال العبد.
- والربوبية الخاصَّة تكون في مقام الثَّناء، ومقام أنَّ الله -عزَّ وَجلَّ- يكون ربًّا لهم بنصره وتأييده وتوفيقه، ولهذا قال الله -عزَّ وَجلَّ- لَمَّا أدركَ موسَى فرعونُ قال الله على لسان موسى: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].
- وكذلك هذه الربوبية يُراد بها أنه تعالى يُربِّي أصفياءه وأولياء بالتوفيق والنصرة والإعانة، فإذا أُطلق قول "ربُّ العالمين" يُراد به المعنى الأول، وإذا قُيِّدَت يُراد به المعنى الثاني.
- والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- قال في طرد هذه القاعدة: **(وكذلك لفظة "العبودية")**، فمنها ما هو عام ومنها ما هو خاص.
  - ❖ **فالعبوديَّة العامَّة:** أن الخلق كلهم عبيده -سبحانه وتعالى- ومعنى ذلك أنهم مربوبون مقهورون تحت تدبيره، وهذا يُفيدك في التَّوكُّل على الله -عزَّ وَجلَّ- وأنَّك لا تطلب إلَّا ما عندَ الله -عزَّ وَجلَّ- ويُعلَّق قلبك بربك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، فكلهم ملكٌ لله، وليس لهم من أمرهم شيء؛ بل هم مقهورون مُدبَّرون.
  - ❖ **والعبوديَّة الخاصَّة:** جاءت في مقام الثَّناء، قال الله -عزَّ وَجلَّ- في بيان كفايته لعبده محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] .
- فالعبودية هنا في مقام الثناء، وتكون هذه العبودية لمن قام بمقام العبودية الحقَّة لله -عزَّ وَجلَّ- في الامتثال لأمره، والانتهاء عن نهيه، وهو الإيمان المطلق، وليس مطلق الإيمان؛ بل الإيمان الكامل.
- والفرق بين الربوبية والعبودية: أن الربوبيَّة وصفُ الرَّبِّ والعبوديَّة وصفُ العبدِ، والربوبيَّة عامَّة وخاصة، والعبوديَّة عامَّة وخاصَّة.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثانية والثلاثون: الأمر بالشيء نهي عن ضده)}.**

- والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يقرب هذه القاعدة فيقول: **(إذا أمر الله بشيء كان ناهيًا عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان آمرًا بضده، وإذا أثنى على نفسه أو على أوليائه وأصفيائه بنفي شيء من النقائص كان ذلك إثباتًا للكمال)**.
- أمثلة القاعدة: أمرُ الله -عزَّ وَجلَّ- بالتَّوحيد نهيٌ عن الشرك.
- قال الله -عزَّ وَجلَّ- في جمع هذين الأمرين: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، فمجرد العبادة نهي عن الشرك.

- وأمرُ الله -عزَّ وَجلَّ- بالصلاة نهيٌ عن تركها، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧]، فأمرُ الله -عزَّ وَجلَّ- بالزكاة نهيٌ عن تركها.
- وأمرُ الله -عزَّ وَجلَّ- بالصبر نهيٌ عن الجزع، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].
- وأمرُ اللهِ -عزَّ وَجلَّ- بالشُّكر للمنعم نهيٌ عن كفرِ النِّعمة، قال -عزَّ وَجلَّ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فالإنسان يظلم نفسه بكفره نعم الله -عزَّ وَجلَّ.
- وهكذا نهيه عن الشركِ أمرٌ بالتَّوحيد، نهيه عن قطيعة الأرحام أمرٌ بصلةِ الأرحام، وهكذا كافَّة الأوامر والنَّواهي، فإذا أمر الله بأمرٍ فهو نهيٌ عن ضده، وإذا نهى عن شيءٍ كان أمرًا لضده؛ فهذه قاعدةٌ محكَّمة تمرُّ عليها في كل الأوامر والنواهي.
- الشِّطر الثاني من القاعدة وهو مهم، وهو قول المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(وإذا أثنى على نفسه أو على أوليائه وأصفيائه بنفي شيء من النقائص كان ذلك إثباتًا للكمال)**.
- نمثل بمثال واضح في آية الكرسي: قول الله -عزَّ وَجلَّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فـ "الحي" اسم الله -عزَّ وَجلَّ- وصفته "الحياة"، وله تعالى هذه الصفة بكمالها، وتَنفي عنه ما يُناقضها أو يُنقصها، فقول الله -عزَّ وَجلَّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ﴾، فـ ﴿الْحَيُّ﴾ أفادَ معنى أنه لا يُمكن أن يكون في هذه الصفة نقصٌ بوجهٍ من الوجوه.
- وقوله ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، فيه وصف لنفسه -عزَّ وَجلَّ- بالقيُّوميَّة.
- قال الله -عزَّ وَجلَّ- عقبها: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، قال العلماء: لكمال حياته وقيُّوميَّته على كل شيء، فهو قائمٌ على كل شيءٍ ومطَّلعٌ على كلِّ شيءٍ، ولا يعزبُ عنه مثقال ذرَّةٍ.
- وهذه الآية عظيمة الثناء على الله -عزَّ وَجلَّ-، فلا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ، فهو الحي القيوم.
- وهنا قاعدة يذكرها علماء أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات، وهي أنَّ القرآن يأتي بالإثبات المفصَّل والنفي المجمل.
- كذلك من قواعد أهل السنَّة التي يُستفاد منها وتُقعَّد: أنَّ إثبات هذه الصفة إثباتٌ لكمال الضِّد، فكونه -سبحانه وتعالى- حيٌّ إثباتٌ لكمال حياته، وهكذا طردُ هذه القاعدة في أسماء الله -عزَّ وَجلَّ- وفي صفاته -سبحانه وتعالى.
- قال الشيخ: **(أو على أوليائه)**، أي: في حق الرسل وأولياء الله -عزَّ وَجلَّ- جعلنا الله منهم.
- وسيدُ الأنبياء هو النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- قد وصفه تعالى بأوصاف، ومن أوصافه -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- ما جاء في قوله -عزَّ وَجلَّ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]، وكونه وحيٌ يُوحَى فهو لا ينطقُ إلَّا بالوحي من الله، فيُنفَى عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- كل ما يقدَح في النبوَّة والرسالة.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس السابع



بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

❑ {نشرع في هذه الحلقة -بإذن الله- من قول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: (القاعدة الثالثة والثلاثون: المرض في القرآن -مرض القلوب- نوعان: مرض شبهات وشكوك، ومرض شهوات ومحرمات)}.

- الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عقدَ هذه القاعدة في تمييز أمراض القلوب وأمراض الشبهات والشُّكوك.

◆ المسألة الأولى التي ربما تظهر لكل مشاهد ولكل سامع: ما الطريق إلى التمييز بين مرض الشبهة ومرض الشهوة؟

- الله -عزَّ وجلَّ- ذكر المرض في القرآن، فتارة يُشير إلى مرض الشهوة، وتارة يُشير إلى مرض الشُّبهة، فدلَّ على أن ثَمَّ مرضان.
- والطريق إلى تمييز ذلك هو السياق القرآني، فإذا كان في ذمِّ المنافقين فهو يُراد به مرض الشُّبهة؛ لأنَّ أهل النفاق يُوردون الشبهات والشُّكوك على القلوب.

- وإذا كان في ذكر المعاصي عُلم أنه يُراد به مرض الشهوة، وفي كلا الأمرين فهو مرض للقلب، فالقلب تارةً يمرض بالشبهة وتارة يمرض بالشهوة، وعلى كلِّ حالٍ فالمطلوب هو التَّوقي لهذا القلب حتى يكون قلبًا سليمًا.

◆ **السؤال الذي يليه: ما وجه حصر المرض في هذين المرضين؟**

- يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(مرض القلب خلاف صحته، وصحة القلب الكاملة بشيئين)**، **أي أن صحَّة القلب وسلامته تُدرك بأمرين:**

☑ **الأول:** قال الشيخ: **(كمال علمه ومعرفته ويقينه)**، أي بكمال العلم والمعرفة واليقين، فيكون القلب عامرًا باليقين بالله -عزَّ وجلَّ- وبالعلم الذي يُنافي هذا المرض، فإنَّ العلم سببٌ لزوال هذا المرض.

☑ **الثاني:** قال الشيخ: **(وكمال إرادته وحبه لما يحبه الله ويرضاه)**.

- بكمال العلم والمعرفة واليقين وكمال الإرادة يُدفع مرض القلب بنوعيه -مرض الشبهة ومرض الشهوة.

- والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ذكر أمثلةً، ومن الأمثلة على مرض الشُّبهة: قول الله -عزَّ وجلَّ- في آيات النفاق في سورة البقرة: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وهذا هو مرض الشبهة، فقلوبهم عامرة بالشُّبهات وبالشُّكوك -نسأل الله السلامة والعافية- وهذه الشُّكوك لا تزيدهم إلَّا مرضًا بالشَّكِّ، وهذا من عاجل العقوبة.

- وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، يعني مرضًا إلى مرضهم.

- ومن أمثلة مرض الشهوة: قوله -عزَّ وجلَّ- في خطابه لأمهات المؤمنين: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]، والمراد بالمرض هنا هو مرض الشهوة؛ فدلَّ على أنَّ القلب المتعلق بالشهوات هو مريض يحتاج إلى أن يُنقِّي هذا القلب من هذا المرض، فكل مَن أرادَ شيئًا من معاصي الله -عزَّ وجلَّ- فقلبه مريض، ويحتاج إلى أن يُنقِّي هذا القلب من أمراضه.

- والله -عزَّ وجلَّ- أثنى على القلوب الزَّاكية التي زكَّت نفسها بطاعة الله -عزَّ وجلَّ- وبمدافعة هذا المرض، فقال -عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩]، فأثنى الله -عزَّ وجلَّ- على هذا القلب السَّليم، السَّالم من مرض الشُّبهة ومرض الشَّهوة.

- فعلاج مرض القلب يكون بطاعة الله -عزَّ وجلَّ- وبقراءة القرآن وبتدبُّر ما في القرآن، فبالقرآن يكون اليقين الذي يُدفَع به مرض الشُّبهة ومرض الشهوة، ووسائل ذلك مذكورة في كلام أهل العلم في كتاب الرقاق في صحيح البخاري، وفي غيره ممَّا ذكره أهل العلم مما يحصل به زكاة القلب، والإنسان بحاجة إلى تزكية هذا القلب والمجاهدة في ذلك، لأنه لا يكون هذا الأمر في يوم وليلة، ولكن نسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يطهر قلوبنا من أمراضها، ولهذا قال -عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الرابعة والثلاثون: دلَّ القرآن في عدة آيات أنَّ من ترك ما ينفعه مع الإمكان ابتلى بالاشتغال بما يضره، وحُرِم الأمرَ الأول)}.**

- الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ذكر أنَّ من قواعد القرآن هذا الأصل العظيم، ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أمثلة على ذلك، فتتبَّع الآيات القرآنية واستخلص هذه القواعد من خلال الاستقراء والتَّتبُّع.
- والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ذكر صورًا لهذه القاعدة، فمَن ترك ما ينفعه ابتُلِيَ بالاشتغال بما يضره، وهذا ناموس وقاعدة، فالله -عزَّ وجلَّ- يُعاقب المعرض بمثل هذه العقوبات.
- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (أن المشركين لَمَا زهدوا في عبادة الرحمن ابتلوا بعبادة الأوثان، ولما استكبروا عن الانقياد للرسل، بزعمهم: أنهم بشر، ابتلوا بالانقياد لكل مارج العقل والدين)، فابتلوا بالانقياد للعقول الفاسدة، ولم يعبدوا الله -عزَّ وجلَّ- حق عبادته وعبدوا أهواءهم، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فدلَّ على أن الإنسان لا ينفك عن اتِّخاذ الآلهة، إمَّا أن يتَّخذ المستحق للعبادة والألوهيَّة -وهو الله عز وجل- أو يتَّخذ ما هو دونه، ومن ذلك الهوى.
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فقال: (وَلَمَّا بين لهم الصراط المستقيم، وزاغوا عنه اختيارًا ورضوا بطريق الغي على طريق الهدى والرشد، عوقبوا بأن أزاغ الله قلوبهم، وجعلهم حائرين في طريقهم.
- وَلَمَّا منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وأخربوها ما كان لهم بعد ذلك أن يدخلوها إلا خائفين.
- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧]).
- وذكر الله -عزَّ وجلَّ- عن اليهود كذلك: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، كأنهم لم يعلموا أنه هو الرسول، مع أن الله -عزَّ وجلَّ- ذكر أنهم يعلمون، فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].
- ثم لَمَّا أعرضوا عمَّا جاءت به الرسل فانظر إلى العاقبة والعقوبة: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢]، فلمَّا أعرضوا عن الوحي الموجود في كتابهم -التوراة- اتَّبعوا السِّحر وعمدوا إليه، وهو ما تلته الشياطين على ملك سليمان ونسبته إليه ظلمًا وكذبًا وزورًا.
- وهذه قاعدة محكَّمةٌ حتى في الجوانب التربوية، أنَّ الإنسان لا يشتغل إلا بما ينفعه، ويترك ما لا ينفعه، لأنَّك إذا اشتغلتَ بما لا ينفعك أورثك ذلك العقوبة العاجلة، وجاء الأمر على خلاف ما تريد، فهذه قاعدة محكَّمة، والله -عزَّ وجلَّ- ذكرها في القرآن، فينبغي لكل مسلم أن يُعنَى بمثل هذه الأمور.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الخامسة والثلاثون: تقديم أعلى المصلحتين وأهون المفسدتين)}.

- إذا كانَ ثَم مفسدتان فإنَّك تُقدِّم الأهون، ففي باب المصلحة تقدِّم الأعلى، وفي باب المفسدة تقدِّم الأهون.
- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (ومنع ما كانت مفسدته أرجح من مصلحته) كل ما كان مفسدته أعلى وأرجح من المصلحة فإنَّه يُمنَع، وهذه قاعدة محكَّمة عند علماء الأصول، ومتَّفق عليها في الجملة.

- وذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- شواهد هذه القاعدة من كلام الله -عزَّ وجلَّ- ومن القرآن، فمن أمثلة تقديم أعلى المصلحتين المفاضلة بين الأعمال الصالحة، وتقديم الأعلى منها، فإذا عرضَ لكَ عملانِ فإنَّك تقدِّم الأعلى مصلحة والأكثر أجرًا، وهكذا في أمورك كلها، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠]، فالله -عزَّ وجلَّ- فضَّل النَّفقة قبل الفتح على النَّفقة بعد الفتح؛ لأنَّ وضع أهل الإسلام ومكانهم قبل الفتح غير، فكانوا في أمسِّ الحاجة إلى المال والعون، ولكن لمَّا فتحَ الله -عزَّ وجلَّ- على رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- مكَّة قال -عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر:١-٢]، فانقادت العرب جميعًا، فهذه القاعدة الفقه الشرعي.
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مثالًا لتقديم أهون المفسدتين، أو الوقوع في أدنى المفسدتين -كما يُعبِّر بعض علماء الأصول- وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، فهذه الآية تدل على أنه لو تزيَّل أهل الشِّرك عن أهل الإسلام ممن يكتم إيمانه في مكَّة لعذَّب الله -عزَّ وجلَّ- الكفَّار بالعذاب العام، ولأجل أنَّهم لم يتزيَّلوا -يعني لم يتبيَّنوا- فكان في مكَّة قبل فتح النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- لمكَّة هناك مَن هو في سواد المشركين وهو يكتم إيمانه، وهو معذور في ترك الهجرة، من النساء والصبيان وما شاكل ذلك، ولذلك قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وفي قول جماعة من المفسرين: أنهم في سواد المشركين من يستغفر الله -عزَّ وجلَّ- ولهذا جعل الله هذا مانعًا من العقوبة لهم، فإذا كان ثَمَّ مفسدتان فتُقدَّم أهون المفسدتين، فلأجل هذه المفسدة لم يسلط الله -عزَّ وجلَّ- عليهم النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- بالقتل، وامتنع من ذلك.
- وذكر الشيخ مثالًا لمنع ما كانت مفسدته أرجح من مصلحته، وهو قول الله -عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].
- يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(وهذا كالتعليل العام أن كل ما كانت مضرته وإثمه أكبر من نفعه)**، يعني هذه قاعدة محكَّمةٌ في مسألة ما كان ضرره أعظم من نفعه، فإنه يُغلَّب في جانب المنع والتَّحريم.
- وهذه قاعدة محكَّمة عند علماء الأصول، وهذا هو المعقول والمفطور على استحسانه، أي أن العقول فُطِرَت على استحسان مثل هذا الأمر، وهذا يُدركه العقلاء، فالقرآن جاء بموافقة الفطرة والعقل في أحكامه وغي تشريعاته، والفقيه هو مَن يسلك هذه المسالك، يعني الفقه الشرعي الذي جاء الثَّناء عليه من حديث النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «مَن يُرِدِ اللَّهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ»[١١]، فإنه يُعنَى بضبطِ هذه المسائل وفرعيَّاتها، لأنَّه يُقدِّم أعلى المصلحتين، ويرتكب أدنى المفسدتين.

---

[١١] أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

- قال ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: "الفقيه مَن يعرف خير الخيرين، وشر الشرين"، وبهذا تكون السلامة، وتحقيق مصالح الإسلام وقواعده الكبرى.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة السادسة والثلاثون: مقابلة المعتدي بمثل عدوانه.
❑ طريقة القرآن: إباحة الاقتصاص من المعتدي ومقابلته بمثل عدوانه، والنهي عن ظلمه، والندب إلى العفو عنه والإحسان)}.

- ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في هذا قواعد لابدَّ للإنسان أن يكونَ على ذكرٍ منها، فذكر الله -عزَّ وجلَّ- أصول هذه القاعدة وأمثلتها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ يعني القصاص.
- ثم قال: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]، فحثَّ الله -عزَّ وجلَّ- على الاقتصاص وعدم الزيادة، ولهذا قال بعض أهل العلم: "الدعاء قصاص"، يعني: لو حصل من إنسان عداون عليك فإنَّك في دعائك عليه ينبغي أن تلاحظ هذا الملحظ، وهو أنَّك لا تعتدي عليه، ولهذا ندب الله -عزَّ وجلَّ- إلى الصبر والإحسان؛ لأنَّك قد تزيد في مسألة القصاص فتتعدَّى، وقلَّ مَن يسلم من هذا إلَّا مَن سلَّمه الله -عزَّ وجلَّ.
- قال -عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، السيئة تُقابلها سيئة، ومَن اعتدَى عليكَ فإنَّك تقابله بمثل هذا، وهذه هي الرُّخصة التي جعلها الله لك. ثم قال -عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى:٤٠].
- ومن اللفتات اللطيفة في هذا: أن الله -عزَّ وجلَّ- لم يُسمِّ هذا الأجر؛ بل أطلقه، وهذا من عظيم الثواب لأهل العفو والإحسان -نسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم.
- قال الشيخ: (والآيات في هذا المعنى كثيرة)، ومع ذلك فالله -عزَّ وجلَّ- ندبَ إلى الإحسان والعفو، ورغَّب في كظم الغيظ فقال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وندب إلى هذا في آياتٍ كثيرة، ولكن جعل لأهل الإيمان رخصة، وهذه الرخصة مقيَّدة في مسائل القصاص، وهي أنَّ الإنسان لا يتجاوز فيها الحدود الشرعيَّة وما حدَّه الله -عزَّ وجلَّ- حتَّى لا يتحوَّل من مظلومٍ إلى ظالمٍ.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة السابعة والثلاثون: اعتبار المقاصد في ترتيب الأحكام)}.

- هذه قاعدة عظيمة، يقول الشيخ: (اعتبر الله القصد والإرادة في ترتيب الأحكام على أعمال العباد)، يعني يُمكن أن نقول: الأعمال بمقاصدها -كما يعبر بعض علماء الأصول- ويدل على ذلك الحديث العظيم المشهور حديث عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّةِ»[١٢]، وفي رواية «إِنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيّاتِ، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[١٣]، فهذا أصلٌ من أصول الإسلام.
- وورد كذلك في الحديث في بيان أن الأعمال تتفاضل بحسبِ النيَّة، فجاء في الحديث «نية المؤمن أبلغ من عمله»، وما جاء في تسمية بعض النصوص أنَّ أعمالًا يسيرة يحصل بها المغفرة والأجر العظيم.

---

[١٢] أخرجه البخاري (٦٩٥٣)، ومسلم (١٩٠٧).
[١٣] أخرجه البخاري (١).

- قال أهل العلم: إنما مدار الأعمال على النيّات، فإذا كانت النيّة خالصة لله -عزَّ وجلَّ- عظُمَ الأجر والثواب، وإن كان العمل في صورته عملًا يسيرًا؛ فدلَّ على أنَّ الأعمال بمقاصدها.
- وبيَّن الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أنَّ من اعتبار القصد أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- رتَّبَ الثواب على النيَّة.
- قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، وابتغاء مرضات الله -عزَّ وجلَّ- من أعمال القلوب وهو النيَّة والقصد.
- وبيَّن الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أنَّه القصد معتبرٌ في مسائل كثيرة من مسائل الفقه، فقال تعالى في الرجعة الزَّوجيَّة: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨].
- وكذلك اعتُبر القصد في اليمين، فقال -عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].
- كذلك اعتبر القصد في الاعتراف بالدَّين للموصي، فقال -عزَّ وجلَّ: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء: ١٢]، يعني لو اعترف بدينٍ لا يُريد به المضارَّة للورثة، فالقصد معتبر في هذا.
- كذلك اعتبار القصد في مخالطة مال اليتيم، فمطلوب ممَّن كان له ولاية على مال اليتيم أن يتَّجرَ فيه، وقد ورد في الحديث: «اتَّجِرُوا فِي أَمْوَالِ الْيَتَامَى، لَا تَأْكُلَهَا الزَّكَاةُ»[١٤]، وقال -عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].
- كذلك اعتُبِرَ القصد والنية في القتل، فالشَّارع يُفرق بين قتل الخطأ وقتل التَّعمُّد، قال -عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].
- كذلك اعتبر القصد في الصيد للمحرم، فإن الصيد للمحرم غير جائز، قال -عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥].
- وهذا يدل على أنَّ الأحكام بمقاصدها، وأن هذه قاعدة قرآنية يلحظها القارئ لكلام الله -عزَّ وجلَّ- ويتنبَّه إلى آثارها، فإنَّ الأعمال بمقاصدها، والأجر والثواب على المقصد وعلى النيَّة، فربَّ عملٍ صغيرٍ كبَّرته النيَّة، وربَّ عمل كبيرٍ صغَّرته النية.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثامنة والثلاثون: قد دلت آيات كثيرة على جبر المنكسر قلبه، ومن تشوفت نفسه لأمر من الأمور إيجابًا أو استحبابًا)}.

- ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أمثلة لذلك:

➢ أمَّا جبر خاطر مَن ينكسر قلبه لحكمٍ شرعي أو لمصلحةٍ شرعية كالمطلَّقة، ولا شكَّ أنَّ الطلاق كما ورد في الحديث «أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ الطَّلَاقُ»[١٥]، وإن كان لا يسلم من المقال ولكن معناه صحيح، فالمطلقة يحصل لها شيء من الانكسار، ولهذا ندب الله -عزَّ وجلَّ- إلى جبر خاطرها، فقال تعالى:

---

[١٤] ضعفه الألباني في ضعيف الجامع.
[١٥] أخرجه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨)، ضعفه الألباني في ضعيف أبي داود وضعيف ابن ماجه.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١]، فشُرِعَت المتعة للمطلَّقة سواء كانت مطلَّقة قبل الدخول أو بعد الدخول، والمتعة في قدرها يُرجَع فيه إلى العرف كما قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، يعني: بالعرف، فكل امرأة بحسبها وبحسب البيئة التي هي فيها، وهذا من جبر الخاطر لِمَن انكسر قلبه لتنفيذ حكمٍ شرعي.

- كذلك ذكر الله -عزَّ وجلَّ- ممَّن يُندَب إلى الإحسان إليه وإعطائه ولو شيئًا قليلًا جبرًا لخاطره: مَن حضرَ قسمة الإرث، ولهذا قال الشيخ: (إيجابًا أو استحبابًا)، على خلافٍ بين أهل العلم في مثل هذه المسائل، فقال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، [النساء: ٨]، فإذا حضر القسمة مَن ليس بوارثٍ فيُعطونَ ما به يكون جبر الخاطر.

- وذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- من الصور وقتَ حصاد الثِّمار، فإنَّه قد يكون وقت حصاد الثِّمار مَن تتشوَّف نفسه من العمَّال والأُجراء، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، [الأنعام:١٤١].
- وجمعٌ من أهل العلم يرونَ أنَّ هذا في الزَّكاة، وبعضهم يرى أنَّ هذا مُطلق يشمل الزَّكاة ويشمل الإحسان للأجراء، فإنَّهم يُعطونَ ولو شيئًا قليلًا.
- قال بعض السلف: "إذا حُصِدَ أُطعم منه، وإذا أَدخله البيدرَ أطعم منه، وإذا داسه أطعمَ منه ولو شيئًا قليلًا"، لأن الله -عزَّ وجلَّ- يُحب المحسنين؛ فهذا يحصل به جبرُ خاطر مَن تتشوَّف نفسه إلى مثل هذه الأمور، والنفوس بطبيعتها تتشوَّف إلى مثل هذا الأمر.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة التاسعة والثلاثون: في طريقة القرآن في أحوال السياسة الداخلية والخارجية)}.

- هذه قاعدة عظيمة، وهي من السياسة الشَّرعيَّة، وهذا فيه دليلٌ على أنَّ القرآن مُشتملٌ على العلوم كلها، ومن تلك العلوم علوم السياسة، سياسة الناس داخل البلاد وخارج البلاد، والعلاقات الدوليَّة، كل هذا موجودٌ أصول التعامل فيه في القرآن، فالقرآن تبيانٌ لكلِّ شيءٍ، فما ترك القرآنُ شيئًا من الخير إلا ودلَّ على أصله.
- فالشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- قرَّرَ في هذه المسألة العلاقة بينَ الإسلام، فالإسلام تعبُّد وعمل، وليس كالأديان الأخرى أنه خاصٌّ في مسائل التَّعبُّد فقط؛ فالقرآن والإسلام تعبُّد وعمل وتعامل، فالإنسان لا ينفك عن التَّديُّن لله -عزَّ وجلَّ- في كافَّةِ أمور حياته، فالتَّعاليم لا تكون في موضع معيَّنٍ كالمسجد، وخارج المسجد خلاف ذلك، لا؛ القرآن شامل في العلاقات الداخليَّة والعلاقات الدوليَّة، وسياسية الناس، وفي تعامل الناس مع بعض.
- ثم قال الشيخ في الدلالة على هذا الأصل: (طريقة القرآن في هذا أعلى طريقة، وأقرب إلى حصول جميع المصالح الكلية، وإلى دفع المفاسد).

- وذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أن من أصول السياسة: الشورى، وهذه ذكرها الله -عزَّ وجلَّ- في أكثر من موضع، قال -عزَّ وجلّ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾، [الشورى: ٣٨].
- والشُّورى تعم الحاكم والمحكوم، حتى في تعامل الناس فيما بينهم، في بيوتهم وفي أُسَرِهم، وهذا طبَّقه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- تطبيقًا عمليًّا، وهكذا كان أصحابه -رضوان الله عليهم.
- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصلاح الديني والدنيوي هو طريق الشورى)**، ثم قال: **(فهذا النظام العجيب الذي أرشدهم إليه القرآن: هو النظام الذي يصلح لكل زمان ومكان)**.
- وهذه الشُّورى عاقبتها خير للحاكم والمحكوم، ولمن كان له أيّ نوعٍ من أنواع الولاية، لأنَّ المشاركة وأخذ الشُّورى فيه تبصيرٌ لمن ولّاه الله -عزَّ وجلّ.
  - ❖ كذلك من أصول السياسة: الإعداد للعدو؛ لأنَّ العدو قد يكون معلومًا وقد يكون غيرَ معلومٍ، قال الله -عزَّ وجلّ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، [الأنفال: ٦٠]، وهذا يدل على وجوب الاستعداد للأعداء بما يُستطاع من القوَّة العقليَّة والماديَّة والمعنويَّة والحسيَّة؛ كل أنواع الإعداد مطلوبٌ من أهل الإيمان أن يُعدِّوها، وتلك من أصول السياسة.
  - ❖ كذلك من أصول السياسة التي ذكرها الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- وهي مذكورة في القرآن: الحذر والتَّحرُّز من العدو، قال الله -عزَّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾، [النساء: ٧١].
  - ❖ كذلك من أصول السياسة التي ذكرها الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- واستنبطها من القرآن: غياب القائد لا يضر الجماعة.
- ونبَّه أنَّ القائد قد يعتريه ما يعتريه من الموت والآفات، قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾، [آل عمران: ١٤٤]، فدلَّ على واجب الأمة أن تتحوَّط لمثل هذا، وذكر أهل العلم في الأحكام السُّلطانيَّة اختيار ولاية العهد حمايةً لهذا الأصل الذي هو من أصول الشَّريعة.
  - ❖ كذلك من أصول السياسة: الأحكام في مثل هذه الأمور تجري على الاستطاعة، كل أحكام الشريعة تجري على الاستطاعة، لأن الله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، [التغابن: ١٦].
  - ❖ كذلك من أصول السياسة: أداء الأمانات، وهو فرض على كل مسلم، قال الله -عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾، [النساء: ٥٨].
- وبيَّن الشيخ أنَّ الأمانة تشمل الولايات الكبيرة والصغيرة، فلا يُولَّى عليها إلَّا الأكفأ، ويجب عليهم القيام بهذه الولاية على الوجه الذي يُرضي الله -عزَّ وجلّ-، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، [القصص: ٢٦]، ذكر القوَّة والأمانة، فلا تكفي القوَّة؛ بل لابدَّ من القوَّة والأمانة.
  - ❖ كذلك من أصول السياسة: العدل.

- قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وفي آيات كثيرةٍ جدًّا أمرَ الله -عزَّ وجلَّ- بالعدل، ومرَّ معنا ذلك.
- قال ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: "إن الله يُقيم الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ويُزيل الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة"، وهذا لأجل قيمة العدل في بقاء الأمَّة.

❖ ومن أصول السياسة التي ذكرها الله -عزَّ وجلَّ: الحدود الشرعية.

- وذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أنها في غاية العدل والإحسان والحُسنِ، وردعِ المجرمين والنَّكال بهم، لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- هو الذي شرعها، وهو الذي خلق الناس، وهو أعلم بما يحصل به الردع، ولهذا قال -عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس الثامن



بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

❑ {نشرع في هذه الحلقة -بإذن الله- من قول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: (القاعدة الأربعون: في دلالة القرآن على أصول الطب)}.

- الشيخ عبد الرحمن -أجزل الله له المثوبة- ذكر في هذه القاعدة دلالة القرآن على أصول الطب، وهذا ما تشوف النفوس إلى معرفته والتنبيه عليه، ولهذا قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (أصول الطب)، يعني ليس العلاج، وإنما أصول الطب، وأصول حفظ الصِّحة.
- قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (أصول الطب ثلاثة: حفظ الصحة باستعمال الأمور النافعة، والحمية من الأمور الضارة، ودفع ما يعرض للبدن من المؤذيات)، فهذه هي أصول الطب.
- القرآن عُني بسلامة القلوب وسلامة الأبدان؛ لأنه بالأبدان يُتعبَّد لله -عز وجل- العبادة المشروعة التي جاءت في كتابه -سبحانه.

◆ السؤال الذي يطرح نفسه: كيف نبَّه القرآن على ذلك؟

- في قوله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إنه لا يحب المسرفين﴾ [الأعراف:٣١]، فهذه الآية جمعت أصول الطب، ولو أنَّ الإنسان عمل بها في حياته لوجدَ فائدتها في صحَّةِ بدنه.
- ولهذا أُمرَ بالنَّافع الملائم من الأكل والشرب الذي به قوام البدن، فتأكل ما ينفعك، ونُهي الإنسان عن الإسراف في المأكول والمشروب، فالإسراف مذموم، وكذلك أُمر بالحمية عن المؤذي، وذلك بترك الإسراف بالزيادة في الأكل عن القدر، أو التَّخليط في الأكل، ولهذا جاء في الحديث «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ الْآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ غَلَبَتْ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ»[١٦].
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- من صور الحمية عمَّا يؤذي في التشريع الإسلامي، وهذا من محاسن الدين الإسلامي، قال: (أباح الله للمريض التيمم إذا كان استعمال الماء يضره)، والله -عَزَّ وَجَلَّ- جاء بهذه الشريعة في رفع الحرج والضَّرر، فالوضوء عبادة لله -عَزَّ وَجَلَّ- ويكتفى عنه بالتَّيمم، وهو ضرب الصعيد بالكفين، وهذا من رحمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- بهذه الأمَّة، ومن حمية الأبدان عمَّا يؤذيها.
- ثم ذكر الشيخ صورة أخرى من الحمية عمَّا يؤذي فقال: (وأباح للمحرم الذي به أذى من رأسه أن يحلقه ويفدي)، وجاء هذا في حديث كعب وأنَّه كانت تؤذيه هوام رأسه، فإذا كان يؤذيه الشعر فإنه يحلق ويفدي.
- ولو تلاحظ هذا تجد أن أصول الطب موجودة في القرآن، الأكل والشرب، وعدم الإسراف، والحماية عن المؤذي.
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في ختم هذه القاعدة أنَّ كل ما شرعه الله -عَزَّ وَجَلَّ- من الأحكام وإن كان مقصودها الأعظم هو التَّعبُّد لله -عَزَّ وَجَلَّ- وإخلاص العبودية له؛ كالصلاة والصيام والجهاد والحج؛ إلا أنَّ فيها صحَّة للأبدان وراحة للنفس، يعني: يأتي من مصالحها تحقيق صحَّة البدن وراحة النفس، وهذه ثمار وبركة التعبد لله -عَزَّ وَجَلَّ.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الحادية والأربعون: قصر النظر على الحالة الحاضرة)}.

- قال الشيخ -عَزَّ وَجَلَّ: (يرشد الله عباده في كتابه من جهة العمل إلى قصر نظرهم على الحالة الحاضرة التي هم فيها)، يعني: إذا كنت في عمل فاشتغل بنظرك فيما أنت عليه.
- قال: (ومن جهة الترغيب في الأمر)، يعني: ترغب في هذا العمل، وتقصر النظر عليه.
- قال: (والترهيب من ضده إلى ما يترتب عليها من المصالح)، يعني: أنت إذا لم تشغل نظرك بعملك الذي أنت قائمٌ به يحصل لك الفوات، وضد المقصود من العمل.
- ثم قال الشيخ: (ومن جهة النعم إلى النظر إلى ضدها)، وهذا مذكورٌ في القرآن.
- قال الشيخ في بيان هذه القاعدة: (وهي من أعظم ما يدل على حكمة الله، ومن أعظم ما يرق العاملين إلى كل خير ديني ودنيوي)، إذن؛ صلاحيَّة الإسلام لكل زمانٍ ومكانٍ.

---

[١٦] سنن ابن ماجه (٣٣٤٩)، صححه الألباني.

- والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يُعلِّل هذه القاعدة القرآنية بأنَّه إذا كان مُشتغلًا بالعمل الحاضر نجحَ، فلا يكون هناك تشتيت، فيقصر النظر على هذا العمل، وإن تشوَّقت نفسه إلى غيره ضرَّ بالحاضر، وهذا يُدركه الإنسان من نفسه.
- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد ضعفت همته وقل نشاطه)**، فالهمَّة تضعف في العمل الحاضر، وربما كان العمل الأول مترتبٌ على الثاني؛ فيفوت الأول والثاني، فما تتحقق المصلحة، وتصير مفسدة من جهتين.
- وذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أمثلة كثيرة من القرآن من استنباطاته، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ**﴾ [النساء: ٧٧]، يعني: عن القتال، وتعرفون أن الجهاد في أول أمر الإسلام كان محرَّمًا، وأمر الله -عَزَّ وَجَلَّ- بكف الأيدي؛ لأنَّ الأمَّة وأهل الإسلام ليس لهم قدرة ولا إمكان، فقتالهم للمشركين على فنائهم، فأُمروا بكفِّ الأيدي.
- قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾، هنا الاشتغال بالتكليف الحالي.
- قال: ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً**﴾ [النساء: ٧٧]، فمن لم يشتغل بالعمل الحاضر وتشوَّق إلى غيره فلما جاءه الثاني ما حصل المقصود، بل حصل له التَّأخُّر والتَّكاسُل عن الأمر الثاني، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**﴾، [آل عمران: ١٤٣]، وهذا واضح في شاهد هذه الآية القرآنية.
- المطلوب هو الاشتغال بالحاضر، وهذا يُفرِّق بينه وبين التَّطلُّع للخير والنية الطيبة، ولكن المطلوب هو أن يحسن الإنسان نظره في عمل الحاضر ويتقنه، وجاء في الحديث: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ**»[١٧].
- نأتي للقاعدة التي ذكرها الشيخ وهي الإرشاد في باب النعم، وهي أن تنظر إلى من دونك، **وذلك من وجهين:**

☑ **الأول: بالشكر لها**، فأنت إذا لم تنظر إلى مَن دونك في باب النِّعم تحتقر النعمة التي أنت فيها، والله -عَزَّ وَجَلَّ- قال: ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فنعم الله -عَزَّ وَجَلَّ- عليك، فإذا قدَرَ الله -عَزَّ وَجَلَّ- عليك في نعمةٍ معيَّنةٍ لحكمةٍ يعلمها -سبحانه وتعالى- هو؛ فإنَّك لا تتناسى النعم، فإذا نظرتَ في مثل هذه الأمور إلى مَن هو أعلى منك قصَّرتَ في واجب الشُّكر، والله -عَزَّ وَجَلَّ- يقول: ﴿**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾ [إبراهيم: ٧]، أسأل الله أن يوزعني وإيَّاك وإخواني المشاهدين والمشاهدات شكرَ نعمه، فهذا شيء عظيم جدًّا.

☑ **الثاني: بالنَّظر إلى ضدها**، وهذا سبيل لأن تعرف هذه النعمة، وطريقٌ لشكرها، فإذا نظرتَ إلى هذه النعم وضدها، وإلى النعمة ومَن هو دونك فيها؛ فهذا سبيل لأن تقدِّر هذه النعمة وأن تشكر هذه

---

[١٧] حسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠).

النعمة، ولكن إذا نظرتَ إلى مَن دونك ولم تنظر إلى ضدها لم يتحقق هذا، ولهذا نبه الله -عَزَّ وَجَلَّ- على شكر نعمه في مواضع كثيرة، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فكانوا في جاهليَّة فامتنَّ الله عليهم، فاذكروا نعمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- عليكم.

- ثم قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(الأصل في باب النِّعم النظر إلى من هو دونك، وهذا الذي أرشد إليه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- حيث قال: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ»[١٨])**، يعني أحق أن لا تزدروا نعمة الله عليكم، ازدراء النعمة هو احتقار النعمة، فعدِّد النِّعم التي عليك، نعمة الصحَّة والعافية، نعمة سالمة الحواس، وإذا سُلبتَ شيئًا فانظر إلى ما أبقى الله -عَزَّ وَجَلَّ- عليك من النعم، وبهذا تعيش الراحة النفسية وسلامة القلب، وعدم انشغال القلب.

- فينبغي على الإخوة والمسلمين جميعًا، والخطاب يتوجَّه لنا أيضًا؛ أن نذكر نعم الله -عَزَّ وَجَلَّ- علينا ولا نتطلع ولا نتشوَّف إلى ما في أيدي الناس، وهذه سنَّة الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ونتذكر آلاء الله تعالى، ونحن الآن عندنا وظيفة لابدَّ أن نقوم بها هي شكر النِّعم التي عندنا التي نتصبَّح بها في كل صباح ونتمسَّى بها في كل مساء، ولهذا في ورد النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: **«اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر»**، فالمؤمن يسأل ربه في كل صباح ومساء أو يوزعه شكر هذه النِّعم، ومن قدر هذه النعم ألا تحتقرها ولا تزدريها، ولا تطلق نظرك فيما عند الناس وفيما بين أيدي الناس، ولكن أطلق نظرك فيما أعطاك الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولا شكَّ أن القلب ينزعج في طبيعته، ولكن إذا انزعج في مثل هذه الأمور فالمطلوب أنَّه يتذكر نعم الله -عَزَّ وَجَلَّ- ثم ما يعطيه الله -عَزَّ وَجَلَّ- للناس هو عطاء الله -عَزَّ وَجَلَّ- فهو يعطيه لمن يشاء حكمةً وابتلاء، فالمطلوب من أهل الإيمان أنَّه إذا رأى صاحب نعمة أن تدعو له بالبركة، وبأن يوزعه الله شكر هذه النِّعم لأنَّه مبتلى الآن بواجب الشكر، ولهذا قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: **«لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ ...»**[١٩]، وقال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: **«نعمَ المَالُ الصَّالِحُ للرَّجلِ الصَّالِحِ»**[٢٠]، فإذا كان المال لا يُستعمل في طاعة الله -عَزَّ وَجَلَّ- فهو نقمة على صاحبه، وإذا كان المال -وهو من أجل النعم- لا تستعمل في طاعة الله -عَزَّ وَجَلَّ- فيكون وبال على صاحبه، ولا يكون نعمة بل هو نقمة، وهذا ذكره الله -عَزَّ وَجَلَّ- في القرآن ونبه عليه في مواضع كثيرة.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثانية والأربعون: الحقوق لله ولرسوله)}.**

- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(قد ميز الله في كتابه بين حقه الخاص وحق رسوله الخاص والحق المشترك.**
- **وعلم بذلك أن الحقوق ثلاثة:**

---

[١٨] مسند أحمد (٧٤٠٠)، سنن الترمذي (٢٥١٣)، سنن ابن ماجه (٤١٤٢)، صححه الألباني.

[١٩] صحيح البخاري (٧١٤١) واللفظ له، صحيح مسلم (٨١٦).

[٢٠] أخرجه أحمد (١٧٧٦٣)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٢٩٩)، وابن حبان (٣٢١٠) باختلاف يسير، وصححه الألباني.

- **حق لله وحده، لا يكون لغيره: وهو عبادته وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادات)**، ولهذا جاء في حديث معاذ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- أنه قال: **«يَا مُعاذُ أتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ علَى العِبَادِ؟، قَالَ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: أنْ يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا به شَيْئًا»**[21].
- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(وحق خاص لرسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: وهو التعزير والتوقير والقيام بحقه اللائق واتباعه والاقتداء به)**، قال تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾** [الأحزاب: ٢١]، وقال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: **«خُذُوا عَنِّي مَنَاسِككُمْ»**[22]، وقال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: **«صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»**[23]، فحقه -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- أن يُوقِّر، وأن يُصلَّى عليه عند ذكره -اللهم صلِّ وسلِّم على نبينا محمد- وأمورًا كثيرة جاءت بها الشَّريعة، فهذا هو حق الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- الخاص.
- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(وحق مشترك: وهو الإيمان بالله ورسوله وطاعة الله ورسوله ومحبة الله ومحبة رسوله)**.
  - والشيخ يُمثل بمثال **للحق الأول** وهو حق الله تعالى وحده، وهو حقٌّ أكثر من أن يُحصى، والقرآن مشتملٌ من أوله إلى آخره على ذلك، قال تعالى: **﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾** [النساء: ٣٦].
- وذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- في مواضع كثيرة حقَّه -سبحانه وتعالى- وهو أن تُخلَص العبادة له، قال تعالى: **﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾** [الزمر: ٦٦]، وقال: **﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾** [الزمر: ٣].
  - **والحق الثاني** هو حق الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ-، قال تعالى: **﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾**، وقال تعالى: **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [النور: ٦٣]. قال الإمام احمد: "أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا ردَّ بعض قوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- أن يقع في قلبه شيءٌ من الزَّيغ فيهلك".
  - **وفي مثال الجمع بين الحقين** ذكر الشيخ أن القرآن مشتمل على طاعة الله وطاعة رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- قال تعالى: **﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾** [آل عمران: ١٣٢]، وقال: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** [الأنفال: ٢٤].
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أن الفرق بين حب الله -عَزَّ وَجَلَّ- وحب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ:
  - ☑ أن حبَّ الله -سبحانه وتعالى- وطاعته تعبُّد وخضوع.
  - ☑ وحب الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- هو في الله وفي طاعة الله -عَزَّ وَجَلَّ-، قال الله تعالى: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** [آل عمران: ٣١].
- فهذا في معرفة حق الله تعالى وحق الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثالثة والأربعون: الأمر بالتثبت)}.**

---

[21] أخرجه البخاري (٧٣٧٣) واللفظ له، ومسلم (٣٠).
[22] أخرجه النسائي (٣٠٦٢)، صححه الألباني في صحيح الجامع (7882).
[23] صححه الألباني في صحيح الجامع (٨٩٣).

- يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (يأمر الله بالتثبت وعدم العجلة في الأمور التي يخشى من سوء عواقبها، ويأمر ويحث على المبادرة على أمور الخير التي يخشى فواتها).
- يقول الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤]، وقال -عَزَّ وَجَلَّ- في تقرير هذا الأصل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، وقال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فهذه أدلة القواعد الشرعية؛ لأن مثل هذه الأمور يُحتاج فيها إلى التثبُّت وعدم الاستعجال؛ ولأنه يترتب عليه أحكام، فطلب من أهل الإيمان التَّريُّث وعدم العجلة؛ لأنه يترتب عليه أحكام، فمطلوب أن لا يكون الإنسان على عجلة فيها، ويكون حليمًا متأنِّيًا، قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكونُ فِي شيءٍ إلَّا زانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِن شيءٍ إلَّا شانَهُ»[٢٤]، وليس من عقل الإنسان أن يستجيب للانفعالات النفسيَّة ويطيش مع كل طائش، ولهذا في أمر السلم والخوف يُرد إلى أهله، ولا يُذاع؛ بل يُرجع فيه إلى أهله حتى يُعلَم الأمر على وجهه وعلى حقيقته.
- القسم الثاني مُغاير للقسم الأول، وهو الحث على المبادرة إلى الخير، فثَّم أمورٌ يُرادُ بالمكلف المبادرة والمسارعة إليها، وهي مَن ظهرَ فيه الخير، وحُمدت فيه العاقبة، والمقصود الاستعجال وليس العجلة، وإنما المبادرة، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، أي: بادروا. وقال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، فهذا استباق.
- وجاء النَّص الشرعي من النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- بالمبادرة فقال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا»[٢٥]، فالمطلوب هو المبادرة لأعمال الخير، مُبادرة إلى صلاة الجماعة إذا سمعت "حي على الصلاة"، والمبادرة بالزَّكاة وأحكام الله -عَزَّ وَجَلَّ- في الزَّكاة والحج على الفور، يعني المبادرة وعدم التَّريُّث في مثل هذه الأمور.
- <u>والتباطؤ مذموم غير محمود</u>؛ بينما الأمور التي يترتب عليها أحكام شرعية مطلوب من الإنسان التَّثبُّت والتَّبيُّن، فتُلاحظ هذه التَّوجيهات العظيمة في كلام الله، أسأل الله أن يجعلني وإيَّاكم من المنتفعين بكلامه.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الرابعة والأربعون: علاج ميل النفوس إلى ما لا ينبغي)}.

- الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ذكر ترياقًا -يعني: علاجًا- من القرآن، يقول: (عند ميل النفوس أو خوف ميلها إلى ما لا ينبغي)، أي: إلى ما لا يُحمَد، كاشتغالٍ بالمفضل والمذموم.

---

[٢٤] صحيح مسلم (٢٥٩٤).
[٢٥] صحيح مسلم (٢٩٤٧).

- قال: (يذكرها الله ما يفوتها من الخير، وما حصل لها من الضرر بهذا الميل. وهذا في القرآن كثير، وهو من أنفع الأشياء في حصول الاستقامة)، أي: الاستقامة على الدين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وفي حديث سفيان بن عبد الله الثقفي لما قال للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عليه غيرك، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «قُلْ: آمَنْتُ باللَّهِ، ثم اسْتَقِمْ»[٢٦].
- والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يقول: (وهو من أنفع الأشياء في حصول الاستقامة؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي المجرد لا يكفي أكثر الخلق في كفهم عما لا ينبغي، حتى يقرن بذلك ما يفوت من المحبوبات التي تزيد أضعافًا مضاعفة على الذي يكرهه الله، وتميل إليه النفس، وما يحصل من المكروه المرتب عليه كذلك)، يعني حتَّى أُعلل أنَّك إذا لم تأتمر ولم تنتهِ اشتغلتَ بالمذموم، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، [الأنفال: ٢٨]، فالاشتغال بهم عن طاعة الله -عَزَّ وَجَلَّ- لا شكَّ أنه مذموم، ثم قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- في تمام الآية: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.
- وقال -عَزَّ وَجَلَّ- في موضع آخر: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩]، يعني: اشتغلتم بالجدال عنهم، وهذا أمرٌ مذمومٌ.
- وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠]، يعني: مَن يُريد الجنَّة فالله -عَزَّ وَجَلَّ- يضاعف له الأجر.
- ثم قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾، يعني: إذا كان المراد هو حظ الدنيا ونصيب الدنيا فالله -عَزَّ وَجَلَّ- يُعطيه في الدُّنيا، لكنه في الآخرة ليس له نصيب، وهذا من أعظم الخذلان -نسأل الله السلامة والعافية.
- قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾، [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الخامسة والأربعون: حث الباري سبحانه في كتابه على الصلاح والإصلاح)}.

- الرَّب -سبحانه وتعالى- الباري حثَّ على الصَّلاح والإصلاح؛ وهذه من القواعد.
- إذن؛ أمرَ الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالصَّلاح وهو مغاير للفساد، وبالإصلاح بين الناس، وأثنى الله -عَزَّ وَجَلَّ- على طائفتين: الصالحين والمصلحين. و"الصَّالح والمصلح" من ألفاظ العموم.
- وذكر الشيخ ضابط هذا الإصلاح فقال: (والصلاح: أن تكون الأمور كلها مستقيمة معتدلة آخذة سبيلها الذي سنه الله مقصودًا بها غايتها الحميدة).

---

[٢٦] صحيح مسلم (٣٨).

- وذكر الشيخ أمثلة لذلك، فذكر عن نبي الله شعيب لَمَّا دعا قومه وبيَّن لهم أنه لا يريد بهم إلَّا الإصلاح، قال تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾، [هود: ٨٨].

إذن: الأنبياء يأمرون بإصلاح حال الناس، ولهذا جاءت الشريعة بتحقيق المصالح ودفع المفاسد، بإصلاح أحوال الناس في دينهم ودنياهم.

- ثم ندب الله -عَزَّ وَجَلَّ- إلى جمع قلوب الناس بالإصلاح، فقال -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- أثنى على الإصلاح بين الناس.
- وبيَّن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- أنَّه رُخِّصَ في الكذب في مجال الإصلاح، مع أنه مفسدة، ولكن مصلحته راجحة، فقال: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»[٢٧].
- ولهذا بيَّن الله -عَزَّ وَجَلَّ- أنَّ هذه الأمَّة أمَّة الوسط الخيار، فقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وأثنى الله -عَزَّ وَجَلَّ- على الآمرين بالمعروف والنَّاهين عن المنكر؛ لأنهم من المصلحين.
- فمن الإصلاح: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر العلم والدعوة إلى الخير؛ وكل هذا كما مرَّ معنا في قَالَب الإحسان بالقول والعمل، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكونُ في شيءٍ إلَّا زانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِن شيءٍ إلَّا شانَهُ»، فإذا نُزِعَ من هذا اللباس فإنه يعود على صاحبه بالضرر وعلى الأمة بالضرر، فالواجب أن يكون هذا في لباس الإحسان والرَّحمة والرِّفق، ولكن لا ينقطع هذا الواجب.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة السادسة والأربعون: ما أمر الله به في كتابه، إما أن يوجه إلى من لم يدخل فيه فهذا أمر له بالدخول فيه، وإما أن يوجه لمن دخل فيه فهذا أمر به ليصحح ما وجد منه، ويسعى في تكميل ما لم يوجد فيه)}.

- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (ما أمر الله به في كتابه)، يعني في القرآن.
- قال: (إما أن يوجه إلى من لم يدخل فيه فهذا أمر له بالدخول فيه، وإما أن يوجه لمن دخل فيه فهذا أمر به ليصحح ما وجد منه، ويسعى في تكميل ما لم يوجد فيه. وهذه القاعدة مطردة في جميع الأوامر القرآنية: أصولها وفروعها).

✸ **مثال القسم الأول** -يعني أن يوجه لمن لم يدخل بالدخول فيه: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧]، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- وجَّه أهل الكتاب إلى الإيمان بالقرآن وبمحمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- فهم لم يدخلوا فيه، فوجَّههم وخاطبهم بهذا اللفظ، وهم اليهود والنصارى.

---

[٢٧] أخرجه البخاري (٢٦٩٢) مختصراً، ومسلم (٢٦٠٥).

✸ **مثال القسم الثاني** -من دخل فيه أن يصححه- ويدل على أن الإنسان لا ينقطع عن التَّزكية والتَّربية والتَّصحيح في عمله، قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بالله ورسوله**﴾ [البقرة: ١٠٤]، فهم مؤمنون، وأرشدهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- إلى مزيد من الإيمان وتصحيح هذا الإيمان، والبلوغ بهذا الإيمان على أعلى الدرجات، وهذه وظيفة المؤمن، التوبة والتعبد لله -عَزَّ وَجَلَّ- قال تعالى: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر: ٩٩]، يعني حتَّى يأتيك الموت.

- والمطلوب من الإنسان أن يُجاهد نفسه في مراقي الكمال ومراقي تزكية النفوس ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩]، حتى يحل الأجل، وهو في ذلك في غاية التَّعبُّد لله -عَزَّ وَجَلَّ- والجهاد في سبيل الله -عَزَّ وَجَلَّ- قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٩].
- يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(وبهذه القاعدة نفهم جواب الإيراد الذي يورد على طلب المؤمنين من ربهم الهداية إلى الصراط المستقيم، مع أن الله قد هداهم للإسلام!)**، ولماذا نقول في كل ركعة: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة: ٦]، ونحن قد هُدينا إلى الصراط المستقيم وإلى الإسلام؟!
- الجواب: هو سؤال التَّكميل والثَّبات عليها، ولهذا قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لمعاذ: **«يَا مُعَاذُ إِنِّي لَأُحِبُّكَ». فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَا أُحِبُّكَ. قَالَ: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»**[28]، فهذا التكميل وهو حسن العبادة لله -عَزَّ وَجَلَّ- والاستقامة والإنابة، ولهذا فإن التوبة هي وظيفة العمر، فمطلوب من الإنسان أن يتوب ويستغفر الله -عَزَّ وَجَلَّ-، قال تعالى: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [النور: ٣١]، فالخطاب لأهل الإيمان بأن يجددوا توبتهم، وهذا فيه دلالة على هذه القاعدة، وهي أن الإنسان لا ينقطع عن التوبة والاستغفار والإنابة والمغفرة، وأن يُكمِّل النَّقص، وأن ينظر إلى نفسه بعين التقصير، وأن يسأل ربَّه أن يكمل أموره، وأن يحسن له العاقبة، ولهذا جاء في الحديث **«اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ»**[29]، وفي الحديث: **«اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَيْرَ عُمُرِي آخِرَهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَوَاتِيمَ عَمَلِي رِضْوانَكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَيْرَ أَيَّامِي يَوْمَ أَلِقَاكَ»**[30]، فالمؤمن لا ينقطع عن التعبد لله -عَزَّ وَجَلَّ- وعن تزكية النفس وسؤال الله المغفرة، وبهذا أُمر وبهذا كُلِّف.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



---

[28] أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وأحمد (٢٢١١٩) واللفظ له، وصححه الألباني.

[29] أخرجه أحمد (١٧٦٦٥) واللفظ له، وابن حبان (٩٤٩)، والطبراني (٢/٣٣) (١١٩٨)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (١٤٥٠).

[30] المعجم الأوسط للطبراني (9/157).

الدرس التاسع



بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهُمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

❑ {نشرع في هذه الحلقة -بإذن الله- من قول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة السابعة والأربعون: السياق الخاص يراد به العام إذا كان سياق الآيات في أمور خاصة وأراد الله أن يحكم عليها وذلك الحكم لا يختص بها، بل يشملها ويشمل غيرها، جاء الله بالحكم العام)}.

- الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بعد ما قعَّد لهذه القاعدة قال: (وهذه القاعدة من أسرار القرآن وبدائعه، وأكبر دليل على إحكامه وانتظامه العجيب).
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أمثلة لهذه القاعدة، منها: أن الله -عز وجل- ذكر عن أهل النفاق ما وعدهم به من العذاب والنكال، فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، ثم قال -سبحانه وتعالى- في سياق الآيات: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦].

- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(فلما أراد الله أن يحكم لهم بالأجر لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ليشملهم وغيرهم من كل مؤمن، ولئلا يظن اختصاص الحكم بهم)**، أي: لا يُظن أنَّ هذا الحكم مختصٌّ بتلك الفئة التي تابت، ولهذا فإنَّ أحكام التوبة عامَّة للجميع، وفضلها يعم مَن نزلت الآيات في حقه وفي غيره، ولهذا جاء الله -عز وجل- بلفظ العموم.
- ولهذا ينبغي لمن يقرأ كلام الله -عز وجل- أن ينتبه لهذه الملاحظة العظيمة والمهمَّة، والتي هي من أسرار القرآن -كما قال الشيخ- ومن بلاغة القرآن، فإن القرآن بليغ، وأحكامه عظيمة، وألفاظه بليغة، ومعانيه واسعة، قال تعالى: **﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾** [النساء: ٨٢].
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مثالًا آخر حتى تتضح الصورة، قال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾** [النساء:١٥٠]، إلى قوله: **﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾** [النساء:١٥١]، فهنا جاء بلفظٍ عام، وهو أن كل مَن يكفر بالله وبرسله فإن النَّكال والعذاب ينتظره، وهذا يعم كل من يكفر بالله -عز وجل.
- ثم ذكر الله -عز وجل- في مقام الامتنان على أهل الشرك الذين يكفرون أو لا يخلصون لله -عز وجل- في حال الرخاء ويُخلصون له العبادة في الشدة كما هو معلوم من حال كفار قريش وكفار العرب، فإنهم إذا نزلت بهم الشدائد يدعون الله -عز وجل-، وإذا كانوا في حال رخاءٍ فإنهم يشركون مع الله -عز وجل- آلهةً أخرى، فقال الله -عز وجل- في مقام الامتنان عليهم: **﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾** [الأنعام:٦٤]، يعني في حال ركوبكم البحر ومن كل كرب، وهذا يعم النَّجاة، وأن الله -عز وجل- هو إله الشدَّة وهو إله الرخاء -سبحانه وتعالى.
- وفي هذا حديث حصين بن عبد الرحمن لما جاء إلى النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- فقال له النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: **«يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعبُدُ اليَومَ إلهًا؟»** قال: سبعةً؛ سِتًّا في الأرضِ وواحدًا في السَّماءِ، قال: **«فأيُّهُم تعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟»**[٣١] قال: الَّذي في السَّماءِ.
- ولهذا قال الله -عز وجل: **﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾** [النمل: ٦٢]، وهذا معلومٌ وقد ذكره الإمام المجدد -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في القواعد الأربع، وذكر أحوال المشركين، وأنَّ حالهم خيرٌ من حال بعض المشركين في هذا الزمان، فإنهم يخلصون لله -عز وجل- في حال الشدَّة، وأمَّا مَن ينتسب إلى الإسلام ويُشرك مع الله -عز وجل- فإنه يُشرك مع الله -عز وجل- في الرخاء والشِّدَّة.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثامنة والأربعون: متى علق الله علمه بالأمور بعد وجودها، كان المراد بذلك العلم الذي يترتب عليه الجزاء)}.**

- هذه القاعدة أراد الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أن يُبيّن منها أنَّ علم الله -عز وجل- في مواضع من كتابه يُراد به معنى، وهو العلم المتعلق بالجزاء وليس العلم الذي هو من صفاته -سبحانه وتعالى.

---

[٣١] أخرجه الترمذي (٣٤٨٣) واللفظ له، والبزار (٣٥٨٠)، والطبراني (١٨/١٧٤) (٣٩٦)، ضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٣٤٨٣).

- ومن المتقرر أن يُعلم أن من عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بالقضاء والقدر، وبمراتبه الأربع، وهي: العلم والكتابة والمشيئة والخلق والإيجاد؛ فهذه المراتب يُؤمن بها أهل السنة والجماعة، وجاءت النصوص بها.
- ومُراد الشيخ من صفة العلم ليس العلم الذي هو من مراتب القدر، وإنما المراد العلم الذي يتعلق به الجزاء، فمراتب الإيمان بالقضاء والقدر أن تعلم أن الله -عز وجل- عَلِمَ، وكَتَبَ في لوحه المحفوظ، وشَاءَ، وخلَقَ وأوجدَ.
- ومرتبة العلم أنكرها القدريَّة الأوائل، ولهذا كفَّرهم السلف -رحمهم الله- لأنهم أنكروا علم الله -عز وجل- وقالوا: إن الله -عز وجل- لا يعلم بالشَّيء حتى يقع، ولهذا كان الإمام الشافعي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يقول: "ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروه فقد كفروا".
- والمراد هنا من قول الشيخ: **(متى علق الله علمه بالأمور بعد وجودها)**، المراد به: العلم الذي يترتب عليه الجزاء، فإن الله -عز وجل- بعلمه هو عالم بكل شيء، ولكن الله -عز وجل- لا يرتب الجزاء -سواء كان ثواب أو عقاب- إلا إذا وقع العمل.
- ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أمثلة، منها: قول الله -عز وجل- في جزاء الصيد: ﴿**لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ**﴾ [المائدة: من الآية٩٤]، والله -عز وجل- عالم بكل شيء، ولكن المراد بالعلم هنا: العلم الذي يتعلق به الجزاء والعقاب والثواب.
- وقال الله -عز وجل: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾ [البقرة: من الآية١٤٣]، فتحويل القبلة كان موضعَ امتحان واختبار، ولهذا جعله الله -عز وجل- حكمًا يتعلق به الجزاء، فالله -عز وجل- نسخ هذه القبلة التي كانوا يستقبلونها من بيت المقدس إلى الكعبة حتى يتعلق الأمر بالامتثال ﴿**مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾.
- ولهذا قال الله -عز وجل: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾ [البقرة: ١٤٣]، يعني: صلاتكم إلى بيت المقدس، فإنها وقعت في محلها، ووقع ثوابها عند الله -عز وجل.
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مثالًا آخر، وهو قول الله -عز وجل: ﴿**وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ**﴾ [الحديد: من الآية٢٥]، فهذا هو العلم المتعلق بالجزاء.

خلاصة القاعدة:

- أن علم الله -عز وجل- المراد به علمه -سبحانه وتعالى- الذي هو كائنٌ بكل شيء هذا من صفاته، أمَّا العلم الذي يُراد به ترتُّب الجزاء فإنَّ هذا علمٌ آخر، والله -عز وجل- يعلم كل شيء -سبحانه وتعالى- فيعلم الشيء قبل أن يقع كيف يقع، ولكن من رحمته -سبحانه وتعالى- وحكمته أنه لا يُرتّب الأمور إلَّا على أسبابها.
- فالمراد بهذه الآيات: العلم الذي يتعلق به الجزاء، لا أن الله -عز وجل- لا يعلم بالشيء حتى يقع من الإنسان، وإنكار علم الله -عز وجل- كفر مُستقل، وذكرتُ لك ما قالته القدريَّة الأوائل من إنكار علم الله -عز وجل- وتكفير السلف لهم، وهذا واضح مما هو معلوم من الدين بالضرورة.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة التاسعة والأربعون: إذا منع الله عباده المؤمنين شيئًا تتعلق به إرادتهم، فتح لهم بابًا أنفع لهم منه وأسهل وأولى)}.

- هذه قاعدة قعَّدها الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- باستقرائه للنصوص، يقول: (إذا منع الله عباده المؤمنين شيئًا تتعلق به إرادتهم)، يعني: أن الله -عز وجل- قد يُرتب أمورًا معيَّنةً لحكمةٍ يعلمها -سبحانه وتعالى، فما جاء من أمر الله -عز وجل- يكون على غير مراد الناس، ومن رحمته -سبحانه وتعالى- ومن إحسانه أنه يفتح لهم بابًا أنفع وأسهل وأولى، ولهذا قال الله -عز وجل- في سورة النساء وذكر الشيخ هذا المثال: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: من الآية٣٢]، فتمنِّي النساء بعض منازل الرجال خلاف المطلوب الشرعي، وجاء النهي عنه، ولهذا قال الله -عز وجل- في عقب ذلك: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾، إذن؛ المطلوب من النساء والرجال ومَن يفوته مراده في شيء أن يسأل الله -عز وجل- من فضله، وهذا من الدعاء العام الذي ينبغي للإنسان أن يحرص عليه، وجاءت أذكار عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- في هذا، فقال: «اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتك التي لا يملكها إلا أنت»، ودعاء الخروج من المسجد يقول: «اللهم إني أسألك من فضلك العظيم»، فهذا مطلوب من أهل الإيمان.
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مثالًا آخرَ على هذه القاعدة فقال: (ولما سأل موسى عليه السلام ربَّه الرؤية حين سمع كلامه، ومنعه منها)، فمنعه الله -عز وجل- من ذلك وقال: ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣]
- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وبلسان المقال سلّاه بما أعطاه من الخير العظيم، فقال: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤])، فلمَّا منعه الله -عز وجل- سلَّاه بهذه المنقبة العظيمة التي كان لنبي الله موسى -عليه الصلاة والسلام- فإنه كليم الرحمن.
- وكذلك لما ذكر الله -عز وجل- في القرآن الفرقة بين الزوجين قال: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ [النساء:١٣٠]، مع أن الفُرقة أمر مكروه للمرأة والرجل على أي نوع كانت الفرقة، سواء بالطلاق البائن أو بالخلع، فلا شكَّ أنه مكروه للرجل وللمرأة، فقال الله عقب ذلك: ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾، وهذا ملحظ مُهم جدًّا لابدَّ للإنسان أن ينتبه له، فقد يكون الأمر على غير مُراد الإنسان، ولكن بظنِّه الحسن بربِّه -سبحانه وتعالى- يتذكر هذه النصوص، فيظن بربِّه خيرًا، وقد جاء في الحديث القدسي أنَّ الله -عز وجل- يقول: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ»[٣٢].
- فمن مطالب أهل الإيمان أن يُحسنوا ظنهم بربهم -سبحانه وتعالى- وإذا وقع الأمر على غير مرادهم أن يُحسنوا الظنَّ بالله -عز وجل- لأن الله كريم واسع الفضل -سبحانه وتعالى- وهذه النصوص تدل على هذه المآخذ العظيمة واللفتات البليغة.

---

[٣٢] أخرجه أحمد (١٦٠١٦)، والدارمي (٢٧٣١)، وابن حبان (٦٤١) واللفظ له، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٥/٤).

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الخمسون: آيات الرسول: هي التي يبديها الباري ويبتديها)}.

- الآيات -بعبارات السلف وكما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية- هي: المعجزات.
- قول المؤلف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (آيات الرسول: هي التي يبديها الباري ويبتديها)، أي: الله -عز وجل- هو الذي يُبديها ويُظهرها ويبتدئها.
- ثم قال الشيخ: (وأما ما أبداه المكذبون له واقترحوه، فليست آيات. وإنما هي تعنتات وتعجيزات)، إذن؛ الأصل في الآيات أن الله -عز وجل- يُظهرها ابتداءً، ولا يُظهرها على رغبات المكذبين للرسل والمتعنِّتين في قبول دعوة الرسل، فهذه الآيات -التي هي المعجزات- يؤتيها الله -عز وجل- للرسل، وهي من البراهين على صدقهم، وعلى أنهم جاءتهم الرسالة من عند الله -عز وجل-، والآية -أو المعجزة- تكون خارقة للعادة، فيعرفون ويعلمون أنها لا يُمكن أن تكون من أيدي البشر ومن صنعهم.
- ثم قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وأما ما آتى الله محمدًا -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- من الآيات فهي لا تحد ولا تعد)، وقد ظهرت المعجزات على يد النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- ورأى الناس ذلك وعاينوا صدقه -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- بآيات واضحة وبخرقٍ للعادة في أمور كثيرة، من نبع الماء بين أصبعيه، وتكثير الطعام، إلى غير ذلك من الآيات التي ظهرت للناس عيانًا في زمن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ.
- ثم قال الشيخ: (فعلم بذلك أن اقتراح المكذبين لآيات يعينونها ليست من هذا القبيل)، فإن مقصودهم التعجيز، فليس من مطالبهم أن تكون الآيات لأجل الإيمان، وإنما يريدون تعجيز الرسل، فهي تعنُّتات وتعجيزات، وهذا ملحوظٌ حينما يتتبع الإنسان القصص القرآني وقصص الأنبياء مع أقوامهم.
- قال الشيخ: (فهذه طريقة لا يرتضيها أدنى منصف)، فهذه الطريقة لا يقبلها كل من له عقل، حينما يكون الطلب لأجل التَّعنُّت، ففرق بين مَن يطلب الأمر لأجل أن يرى الآية ويزداد إيمانًا، وبين مَن يطلبها لأجل التَّعجيز، ولهذا في سؤال إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ربَّه كان من باب اليقين والإيمان لما سأل ربَّه أن يُحيي له الطير، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فهذه الآية ليست من هذا السياق، وإنما طلبات الكفار كانت تعجيزيَّة.
- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (فهذا من جهلهم في الحال والمآل).
- أما الحال: فمقصودهم عدم الإيمان، يعني هم لن يؤمنوا حينما يقترحون على الرسل هذه الآيات، فمن جهلهم أنهم يطلبونها، لأنهم لو طلبوها وأراد الله -عز وجل- بحكمته أن يُنفذ ذلك فإنهم يُعاجلون بالعقوبة، وهذا من الأشياء التي جعلها الله -عز وجل- قاعدة مطَّردة في عباده، ولهذا قال الله -عز وجل- في سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

والله -عز وجل- من رحمته بهم أنه لا يعطيهم هذا المطلوب، ولهذا كان من جهلهم أنهم يطلبونها.

- وذكر الله -عز وجل- هذا في موضع آخر فقال تعالى لأتباع عيسى لما سألوه أن ينزل عليهم مائدة من السماء: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، فمن قام عليه هذا الأمر وظهر لا شكَّ أن جرمه عظيم بعد التكذيب.
- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (وأما المآل: فإنهم جزموا جزمًا لا تردد فيه أنها إذا جاءت آمنوا وصدقوا)، وهذا إخبارٌ بما لا يعلمون وما لا يملكون، يعني هم يُخبرون عن شيءٍ مستقبل وهم لا يعرفون ذلك.
- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أمثلةً لطلباتهم وتعنُّتاتهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]، فهذه طلبات المشركين في زمن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولهذا قال الله -عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: من الآية١١١]، ما كانوا ليؤمنوا، لأن إيمانهم بمشيئة الله -عز وجل.
- ثم قرر الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أن هذه الاقتراحات والطلبات لو تحققت لهم ثم وقع منهم إيمان؛ فهو إيمان شهادةٍ وليس بإيمان الغيب الذي يتفاضل به أهل الإيمان عن غيرهم.
- وهذا ملحظ مهم جدًّا، وهو أن مبنى الإيمان على الغيبيات، ولهذا لَمَّا ذكر النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عذاب القبر قال: «لو سمع الخلائق هذا العذاب لصعقوا»، فمن حكمة الله -عز وجل- أنه غيَّبَ هذه الأمور عن الناس، ولهذا يتفاضل أهل الإيمان على الكفار بالإيمان بالغيب، ولهذا قال الله -عز وجل- في مقام الثناء: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:١- ٣]، فالإيمان بالغيب من مطالب أهل الإيمان، وبه يتفاضلون، وكلما ازداد الإنسان إيمانه بالغيبيات ازداد إيمانه، فهذا ملحظ مهم جدًّا، وهو أن يُعرف أن الله -عز وجل- غيَّب عنَّا أشياء كثيرة إنما ليعلم الله -عز وجل- المؤمن ممن يُكذب بهذه الآيات ولا يؤمن بها.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (القاعدة الحادية والخمسون: كلّما ورد في القرآن من الأمر بالدعاء، والنهي عن دعاء غير الله، والثناء على الداعين: يتناول دعاء المسألة، ودعاء العبادة)}.

- الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قال عن هذه القاعدة: (وهذه قاعدة نافعة. فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة: دعاء المسألة فقط. ولا يظنون دخول جميع العبادات في الدعاء، ويدل على عموم ذلك: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: من الآية٦٠]، أي أستجب طلبكم، وأتقبل عملكم ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، [غافر: من الآية٦٠])، لاحظ أنَّه جاء لفظ "الدعاء" في مُقدَّم الآية، ثمَّ قال ﴿عِبَادَتِي﴾.
- قال الشيخ: (لأن الداعي دعاء المسألة يطلب مسئوله بلسان المقال، والعابد يطلب من ربه القبول والثواب، ومغفرة ذنوبه بلسان الحال)، ويدلُّ على ذلك أن النية شرطٌ لصحَّة العمل، ولهذا قال الله -عز وجل: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: من الآية١٤]، أي: الإخلاص في المسألة والإخلاص في العمل.

فالمطلوب من أهل الإيمان أن يُخلصوا لله -عز وجل- في حال دعائهم وفي حال عملهم، وهذه الآية يُستدل بها على الإخلاص في الدعاء وفي العبادة.

- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أمثلة لذلك، ومنها: قوله -عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، [الأنبياء:٩٠].
- فإذا تقرر عندك أن المراد بالدُّعاء هو دعاء المسألة ودعاء العبادة؛ فتعلم من ذلك قاعدة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [المؤمنون:١١٧]، وقوله -عز وجل: ﴿فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، وقوله -عز وجل: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص:٨٨]، وقوله -عز وجل: ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]؛ يعم دعاء المسألة ودعاء العبادة، فأنت مطلوب منك أن تُخلص لله -عز وجل- الدعاء في مسألتكَ وفي عبادتكَ، وبهذا تعلم أن مَن يعبد غير الله -عز وجل- لم يعبد الله -عز وجل- مخلصًا له الدين كما أمر الله تعالى نبيَّه -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: ﴿بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ [الزمر: ٦٦].
- فالمطلوب من المسلمين جميعًا أن يُخلصوا لله -عز وجل- في مسألته وفي دعائه، ويُعلَم أن مَن دعا غير الله -عز وجل- واستغاث بغير الله -عز وجل- فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى كما يفعل أرباب القبور الذين يعظِّمونها ويستغيثون بها من دون الله -عز وجل-؛ أنهم يُخالفون ما جاءت به النصوص، والله -عز وجل- حكم عليهم بهذه الأحكام الواضحة البيّنة، فظهرت الحجَّة وبانت أنَّ مَن دعا غير الله -عز وجل- فقد كفر بالله -عز وجل- ودعا غيره.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثانية والخمسون: إذا وضح الحق وبان، لم يبق للمعارضة العلمية، ولا العملية محل)}.

- هذه قاعدة قال عنها الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وهذه قاعدة شرعية عقلية فطرية).
  - ☑ شرعيَّة: يعني جاءت بها الشَّريعة.
  - ☑ عقليَّة: يعني يدل عليها العقل.
  - ☑ فطريَّة: يعني الناس فُطِرُوا على الإقرار بمثل هذه المسلَّمات.
- فإذا وضح الحق وبانَ لم يبقَ للمعارضة محل، لا المعارضة العلميَّة ولا العمليَّة، فإذا كابرَ مَن يُكابر في الدليل الواضح البيّن كمن يطلب الدليل على وضوح وظهور الشَّمس؛ فهذا لا يُقبل عقلًا.
- ثم يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (أنه من المعلوم أن محل المعارضات وموضع الاستشكالات وموضع التوقفات ووقت المشاورات إذا كان الشيء فيه اشتباه أو احتمالات فترد عليه هذه الأمور)، لأن هذا يُحتَمل.
- ثم قال: (فأما إذا كان الشيء لا يحتمل إلا معنى واحدًا واضحًا)، أو لا يحتمل إلَّا معنى واحدًا (فالمجادلة والمعارضة من باب العبث، والمعارضُ هنا لا يُلتفت إلى اعتراضاته، لأنه يشبه المكابر المنكر للمحسوسات).

- ثم ذكر الشيخ الأمثلة، قال الله -عز وجل: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فأيُّ داعٍ للإكراه والحق واضح؟! وإنما قد يُتصوَّر الإكراه فيما فيه مصلحةٌ خفيَّة. أما إذا كان الأمر ظاهرًا فإنه لا إكراه في الدين، فإذا وضُحَ الدينُ وبانَ فلا إكراه فيه.
- قال الشيخ: (ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]).
- قال أهل التفسير: هذا تخيير معناه التهديد لوضوح الحق وظهوره، يعني ليس المراد أن الناس بالخيار في الإيمان كما يتصوره البعض؛ إنما هو تخييرٌ معناه التَّهديد لوضوح الحق وظهوره، فإذا وضُحَ والحق وظهر جاءت السياقات القرآنية بهذه اللفاظ التي لا يظن منها التخيير، وإنما يُفهَمُ منها التَّهديد، ولهذا قال الله عقب هذه الآية: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].
- ولهذا قال الله -عز وجل- لنبيه محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦]، وهذا على وجه الذَّم لهم، ثم قال -عز وجل: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].
- وهنا ملحظ تربوي مهم جدًّا! وهو أن ثبات أهل الإيمان على الإيمان يُضعف الباطل.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثالثة والخمسون: من قواعد القرآن: أنه يبين أن الأجر والثواب على قدر المشقة في طريق العبادة، ويبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من منته وإحسانه، وأنها لا تنقص من الأجر شيئًا)}.

- هذا من فضل الله -عز وجل- ورحمته بأهل الإيمان، الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- قال: (من قواعد القرآن: أنه يبين أن الأجر والثواب على قدر المشقة في طريق العبادةً)، وهذا ظاهرٌ في النصوص، وظاهرٌ في السنَّة النبوية، لما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- لعائشة «إنَّ لَكِ منَ الأجرِ علَى قدرِ نَصَبِكِ»[٣٣]، فلا شك أنَّ الأجر يترتب على النصب، فكلما عظمت المشقة عظُمَ الأجر، وهذه قاعدة ذكرها الله -عز وجل- في القرآن.
- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (ويبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من منته وإحسانه)، وهذا التسهيل لا يُنقص من الأجر شيئًا، وهذا يظهر من خلال الأمثلة، قال تعالى في عبادة الجهاد: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فهذه العبادة مع مشقَّتها لكنها تفضي إلى كل خيرٍ وكرامةٍ، وتوصل إلى أعلى منازل الجنَّة، وهذا من التسهيل، فالله -عز وجل- ييسر لك بهذا العمل الذي هو شاق منازل عظيمة في الجنة. وهكذا في مقام الابتلاء، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «مَن يُرِدِ اللَّهُ به خَيْرًا يُصِبْ منه»[٣٤]، وقال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ»[٣٥].

---

[٣٣] رواه الحاكم وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١١٦) وأصل الحديث في الصحيحين.
[٣٤] صحيح البخاري (٥٦٤٥).
[٣٥] أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٦).

- ثم ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- آية أخرى، وهي قول الله -عز وجل: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤]، ولا شكَّ أنَّ أهل الكفر مع أهل الإيمان في القتال، والقدر المشترك بينهم هو الألم، فتفوت الأنفس وتصيبهم الجراحات، ولكن يتفاضل أهل الإيمان عنهم بأنهم يرجون من الله ما لا يرجون، فأهل الإيمان يرجون الجنة، وهؤلاء يرجون حظ الدنيا وعاقبتهم النار.
- قال الله -عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * ورحمة﴾، [البقرة: ١٥٥-١٥٦]، ثم قال -عز وجل- في عظيم الأجر على الصبر: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].
- والملحظ العظيم في هذا قوله -عز وجل: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، فكون أن الأجر بغير حساب دلَّ على أنه عظيم جدًّا، لا يقدر قدره إلا الله -عز وجل- الذي هو يُثيب -سبحانه وتعالى.
- قال -عز وجل- في تسهيل عبادة الجهاد: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]، فلما فرض الله -عز وجل- عليهم قتال الكفار في يوم بدرٍ وكأن هذا الأمر فيه مشقَّة؛ كان هذا التسهيل من الله -عز وجل- لهم في عبادة الجهاد، النُّعاس الذي تغشَّاهم، والماء الذي نزل عليهم في يوم بدرٍ، وربط القلوب، فربط الله -عز وجل- على قلوبهم وثبَّتَ أقدامهم، ونصرهم الله -عز وجل.
- قال -عز وجل: ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]، فهذا من تسهيل الأمر عليهم، وتسهيل الإيمان عليهم أنهم يرون البشرى، سواءٌ قلنا إنها الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له، أو قيل بغير ذلك، لكن هاك بشائر، ولهذا قال الله -عز وجل- في تسهيل الأمر ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧]، فالله -عز وجل- ييسر عليه الأمر.
- وقال الله -عز وجل- في تسهيل العبادة وتسهيل الإيمان: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾، [النحل:٩٧]، فهذه هي عاجل بشرى المؤمن، وهي أن يحس باليقين والإيمان وبالراحة، ولهذا كان بعض السلف وبعض العباد، وذُكر هذا عن ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يقول: "في الدنيا جنَّة من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة"، وهي جنة اليقين والإيمان، وهذا لا يكون في يومٍ وليلةٍ، ولكن بالمجاهدة والمصابرة، والله -عز وجل- يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فالله -عز وجل- يريد منك الجهاد والمثابرة حتَّى يكون لك هذا الثواب العظيم، وهذه البشائر التي هي عاجل بشرى أهل الإيمان.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس العاشر



بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

❑ {نشرع في هذه الحلقة -بإذن الله- من قول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: (القاعدة الرابعة والخمسون: كثيراً ما ينفي الله الشيء لعدم فائدته وثمرته المقصودة منه، وإن كانت صورته موجودة)}.

- هذه القاعدة ذكرها الشيخ باستقرائه للآيات، وهذا معلومٌ وظاهرٌ في آيات متعدِّدَة، فإن الله -عَزَّ وَجَلَّ- قال عن الكفار في مواضع أنَّ لهم حواس كغيرهم، وهذه الحواس على الحقيقة إذا فُقِدَ الانتفاع بها فإنه لا فائدة من وجودها، فإن الأمر ليس في صورته الظاهرة، وإنما في الانتفاع به، فإذا كانت هذه الأعيُن لا تُبصر الحق، وإذا كانت هذه القلوب لا تعي الحق؛ فما الفائدة منها! فليس المراد بها الصور والأجرام والأجسام.
- وذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- في القرآن مواضع تدل على ذلك، كما أن الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ذكر هذه الآيات، قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، فهم لا يسمعون الحق، ولا ينطقون بالحق، وعُميٌ عن الحق، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، فالعقل السليم يُرشدُ إلى الإيمان

بالرسل، والإيمان بالله -عَزَّ وَجَلَّ-، والفِطَر السَّليمة قد فُطِرَت على الإيمان بما جاء عن الله، وما جاء عن رسوله، وبما جاءت به الرسل.

- قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، لأنهم لا ينتفعون بها.
- قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- مبيّنًا أنَّ الأمر عظيمٌ جدًّا في أنَّ العمل ليس عمل الأبصار؛ وإنما عمل القلوب -أسأل الله أن لا يزيغَ قلوبنا وأن لا يعميها عن الحق- قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وهذا يُشاهده الإنسان حتى في أموره الحسيَّة الخاصَّة، فإنَّ القلب إذا لم يعقل فإنه لا يرى ما أمامه -نسأل الله السلامة والعافية- وهكذا مَن تعامى عن الحق.
- وأخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن من أسباب زيغ هذه القلوب الرَّان، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، قال الحسن البصري: "الرَّان: هو الذنب على الذنب حتى يكون الرَّان".
- والرَّانُ يغلِّف القلب عن معرفة الحق نسأل الله العافية-، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن الكفار: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨١]، فإنَّك لن تُسمِعُ الأصم إذا أدبر، ولو فعلتَ ما فعلتَ؛ لأنَّه فقدَ حاسَّة السَّمع، فكذلك هؤلاء، فإنهم لا يسمعون، ويتعامَوْنَ عن الحق.
- وأخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- بهذا عن الكفار وعن المنافقين، فقال عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: ١٦]؛ لأنهم لا يعقلون، ولا يسمعون هذا الحق، وإذا سمعوه؛ سمعوه على وجه المعارضة وعلى وجه التَّكذيب، فلابدَّ للإنسان أن يعنَى بقلبه، وأن يحذر من هذه القلوب المريضة، وهذه القلوب التي غلَّفها الرَّان -نسأل الله السلامة والعافية.
- إذن؛ إصلاح القلوب من مطالب أهل الإيمان، فيُصلح الإنسان قلبه، ويسأل ربَّه القلب السليم، وكما أنَّ الأجساد تتغذَّى فإن القلوب لها غذاء، وغذاؤها بالحجج البينات، وبما جاء عن الله وجاء عن رسوله من الوحي، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، فالتَّشافي بالقرآن تشافي الأبدان وتشافي القلوب، فما أحوج أهل الإيمان إلى الإقبال بكليَّتِهم، فالإنسان يُقبل بكليَّته على كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- ليتشافى به ويتداوى به من علل القلوب، فإذا رأيتَ هؤلاء -نسأل الله السلامة والعافية- أن لهم قلوب ولهم أسماع ولهم أبصار، ولكنهم لا ينتفعون بها؛ فما الفائدة منها!
- والإنسان قد يعتد بعقله ويرى عقله أنه يقوده ويلتجئ إلى هذا العقل ويُكبره فيقع في الضلال -نسأل الله السلامة والعافية- كما وقع بعض أهل الفلسفة من المنتسبين للإسلام في الضلال في باب الإيمان، وفي مسائل الدِّين، وفيما يتعلق بأسماء الله وصفاته.
- قال ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: "أوتوا ذكاء ولكنَّهم لم يؤتوا زكاة"، فما ثَمَّ إلا توفيق الله -عَزَّ وَجَلَّ.
- وينبغي للإنسان في مثل هذه الأمور أن يبرأ من حوله وقوَّته، ويلتجئ إلى حول الله وقوَّته، ويحذر من هذه العلل والأمراض، ويعتبر في هؤلاء الذي سيكبُّهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- في النار -أعاذنا الله وإياكم من النار- مع أنهم أوتوا ما

به يتبيَّن الحق من الباطل، ولكنهم لم يُريدوا هذا الحق؛ فالله -عَزَّ وَجَلَّ- ما أراد لهم الهداية، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. نسأل الله السلامة والعافية من زيغ القلوب.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الخامسة والخمسون: يُكتب للعبد عمله الذي باشره، ويكمل له ما شرع فيه وعجز عن تكميله قهراً عنه، ويكتب له ما نشأ عن عمله)}.

- هذه القاعدة ممكن أن نقول عنها: إنها من محاسن الدين الإسلامي، واستقراء النصوص القرآنية واستقراء النصوص النبوية يدل على هذه القاعدة، وأنها من محاسن الدين، ومن إحسان الله -عَزَّ وَجَلَّ- لعباده.
- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (فهذه الأمور الثلاثة وردت في القرآن.
- أما الأعمال التي باشرها العبد فأكثر من أن تحصى النصوص الدالة عليها، كقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، [المائدة: ١٠٥]، وقال: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، [يونس: ٤١])، فنسب العمل للإنسان الذي يعمله ويباشره.
- قال: (أما الأعمال التي شرع العبد فيها وعجز عن تكميلها: فكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، [النساء: ١٠٠])، وهذه الآية يستدل بها على أن الإنسان في كل عمل يشرع فيه أنه قد يُقهر عنه لأمر، فليرجو من الله -عَزَّ وَجَلَّ- وقوع الأجر.
- قال الشيخ: (فكل من شرع في عمل من أعمال الخير، ثم عجز عن إتمامه)، أي عجز عن إتمامه لأي ظرفٍ كان؛ فقد وقع أجره على الله.
- وهذا جاء في النص النبوي: «إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ له مِثْلُ ما كانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»[٣٦]، ويشبه هذا قول الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، [العنكبوت: ٦٩].
- قال الشيخ: (فكل من اجتهد في الخير هداه الله الطريق الموصلة إليه، سواء كمل ذلك العمل أو حصل له عائق عنه).
- فالمطلوب من أهل الإيمان أن يعمل الإنسان، وينوي النية الطيبة؛ لأنَّها مُقدَّم العمل، وهذا ورد في الأثر وفي الحديث «نِيَّةُ المؤمِنِ أَبْلَغُ مِن عَمَلِه»[٣٧]، فينوي النية الطيبة ويحتسب الأجر، فإنه لو أُعيقَ عنه فإن الأجر قد وقع.
- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (ويكتب له ما نشأ عن عمله)؛ لأن هذا من محاسن الدين.
- قال: (وأما آثار أعمال العبد)، فمن بركة العمل الصالح أنك تثاب عليه، وأنك لو أُعقتَ عنه يُكتب لك، ومن بركته أن آثار العمل مكتوبة، ولهذا قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له»[٣٨]، فمطلوب من أهل الإيمان العمل، واستغلال الأوقات في العمل الصالح، وسؤال الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن يوفقنا لهذه الأعمال الصالحات الزَّاكيات التي يرضاها عنا -سبحانه وتعالى.

---

[٣٦] صحيح البخاري (٢٩٩٦).
[٣٧] رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥/٢٣٣٧).
[٣٨] صحيح البخاري (٤٩٤٩)، صحيح مسلم (٢٦٤٧).

- قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ [يّس: ١٢]، ولو قرأت في كتب التفسير عن معنى "الآثار"، لو جدت المعنى: نكتبُ آثار الصلوات، الخطوات للصلوات، وأشياء كثيرة.
- والمقصود بها: آثار الأعمال، أو الآثار المترتبة على العمل الصالح، وهذا متقرر، ويشهد له قول النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «مَن سَنَّ في الإسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَن عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِن غيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِن أُجُورِهِمْ شيءٌ، وَمَن سَنَّ في الإسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كانَ عليه وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَن عَمِلَ بِهَا مِن بَعْدِهِ، مِن غيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِن أَوْزَارِهِمْ شيءٌ»[٣٩]، فالمقصود أن للإنسان أثر العمل، والإنسان قد يعمل عملًا يتصاغره، ولكن آثار العمل عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- عظيمة، فيُكتب له أجر عظيم جدًّا.
- وينبغي الحذر من الأعمال السيئة؛ لأن لها آثار كما أن للإعمال الصالحة آثار، وهذا ملحظ ربما ذكر الشيخ الجزء الأول منه ولم يذكر الجزء الثاني، فنبَّه أن الآثار المكتوبة هي آثار الأعمال الحسنة، ولكن أيضًا آثار الأعمال السيئة تُكتب، فكما أن الإنسان يرجو الله -عَزَّ وَجَلَّ- بأثر العمل الصالح؛ فكذلك يحذر من أثر الأعمال السيئة، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، نسأل الله السلامة والعافية.
- فالإنسان يكون على غاية الحذر في مثل هذه الأمور، وأن لا يكون أول من فتح بابَ شرٍّ، ولهذا في الحديث: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إلَّا كانَ علَى ابْنِ آدَمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِن دَمِها»[٤٠]، لأنه أول من قتل -نسأل الله السلامة والعافية- فالآثار تحتمل المعنيين.
- ثم قال الشيخ في تفصيل الأثر وتوضيح آثار الأعمال: (والأعمال التي هي من آثار عمل العبد نوعان:
- أحدهما: أن تقع بغير قصد من الإنسان)، وهذا موضع مُهم جدًّا، فالإنسان قد يكون عمله الذي عمله آثر غير محسوس أو منظور له.
- قال: (كأن يعمل أعمالاً صالحة خيرية، فيقتدي به غيره في هذا الخير)، ولهذا دائمًا الإنسان يرجو فضل الله -عَزَّ وَجَلَّ- فإنَّك تحتسب في الأجر عندما تعمل، فربما بعملك هذا الذي عملته يراك أحد فيقتدي بك وأنت لا تعلم، فيكون هذا الأجر لك وأنت لا تعلم، وهذا من بركة العمل الصالح.
- قال: (والثاني: وهو أشرف النوعين: أن يقع ذلك بقصده، كمن علم غيره علماً نافعاً)، وكمن يُقرئ الناس القرآن، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ»[٤١].
- قال الشيخ: (وكذلك من يزرع زرعاً أو يغرس غرساً أو يباشر صناعة مما ينتفع بها الناس في أمر دينهم ودنياهم).
- ثم ذكر حديث النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «إنَّ اللهَ يُدخِلُ بالسَّهْمِ الواحِدِ ثَلاثةَ نَفَرٍ الجَنَّةَ: صاحِبَه الذي يَحتَسِبُ في صَنعَتِهِ الخَيرَ، والذي يُجهِّزُ به في سَبيلِ اللهِ، والذي يَرْمي به في سَبيلِ اللهِ»[٤٢]، وهذا يدل على

---

[٣٩] صحيح مسلم (١٠١٧).
[٤٠] صحيح البخاري (٣٣٣٥)، صحيح مسلم (١٦٧٧).
[٤١] صحيح البخاري (٥٠٢٧).

أن فضل الله واسع، فلا تُحجّر يا عبد الله الواسع من فضل الله -عَزَّ وَجَلَّ- فإن العمل الصالح يشترك فيه ربما جماعات من الناس، فقد تشترك مع الناس بمحبَّة هذا العمل الصالح، وبالدعاء بإتمامه؛ فتكون أنت شريك في هذا العمل الصالح.

- قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»[٤٣]، فيُكتب لك الأجر على الدلالة على الخير، وهذا من محاسن هذا الدين، ففضل الله واسع، ونعمة الله واسعة، وخير الله عظيم، ولا يُمكن أن يُحجِّره أحد، لكن نحن -أهل الإيمان- نرجو فضل الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ولهذا قد تدل الناس على الخير، وترغب الناس في الخير، كالدلالة على بناء مدرسة للأيتام، أو الدلالة على وقف.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة السادسة والخمسون: تحال المصالح على قدر الوسع والطاقة)}.

- يقول الشيخ: (يرشد القرآن الكريم المسلمين إلى إقامة جميع مصالحهم، وأنه إذا لم يكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة من مصالحهم من يقدر على القيام بها، وليوفر وقته عليها لتقوم مصالحهم، وتكون وجهتهم جميعاً واحدة.

- وهذه من القواعد الجليلة ومن السياسة الشرعية الحكيمة، فإن كثيراً من المصالح العامة الكلية لا يمكن اشتغال الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتها، فالطريق إلى حصولها ما أرشد الله عباده إليه).

- ثغور الإسلام كثيرة، وأبواب الخير التي يجب على أهل الإسلام أن يشتغلوا بها كثيرة، ولهذا فإن أهل العلم يسمون هذه المسائل بـ "فروض الكفايات"، وهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- فيه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فواجب القيام بالجهاد من طائفة، ومن أخرى القيام بطلب العلم، ثم قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- في التَّكامل بين الطائفتين: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ... يحذرون﴾، يعني المتفقهون في العلم يرجعون إلى القائمين على ثغور الإسلام بالتفقيه والتعليم.

- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (فلو وفق المسلمون لسلوك هذه الطريق لاستقامت أحوالهم، وصلحت أمورهم)؛ لأنه يكون كلٌّ على بابٍ وثغر من ثغور الإسلام لحمايته، ولكن لا يشتغل بغيره، بل يقوم بأداء الأمانة التي أنيطت به، فهؤلاء الذين يُدافعون عن بلاد التوحيد والإسلام وهم على الثغور الآن.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة السابعة والخمسون: في كيفية الاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيهما على التوحيد والمطالب العالية)}.

- هذه من القواعد التربوية، قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (في كيفية الاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيهما على التوحيد)، يعني: أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- واحد.

- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في التفكر والاستدلال بخلق السماوات والأرض على وجود الله -عَزَّ وَجَلَّ- وعلى أنه المستحق للعبادة: (قد دعا الله عباده إلى التفكير)، وذلك في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي

---

[٤٢] أخرجه أبو داود (٢٥١٣)، والنسائي (٣٥٧٨) باختلاف يسير، وأحمد (١٧٣٣٨) واللفظ له، ضعفه الألباني في ضعيف أبي داود.
[٤٣] صحيح مسلم (١٨٩٣).

﴿أَنْفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٦]، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- دعا الناس إلى التَّفكر، وهو إعمال العقل فيما جاءت به الرسل من الحق، وإعمال العقل في هذه الآيات التي يرونها كل صباحٍ ومساء.

- ثم قال الشيخ: (وأثنى على المتفكرين فيها)، يعني: المتفكرين في خلق السماوات، قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فأثنى الله -عَزَّ وَجَلَّ- عليهم.
- ثم أخبر أنَّ ثَمَّ آيات وعبر في التفكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، يعني: علامات على صدق ما جاء به محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وعلى صدق هذا القرآن العظيم، وعلى أنه من عند الله -عَزَّ وَجَلَّ.
- قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، فعندما يتفكر الناس في خلق أنفسهم وأنهم كيف وُجدوا، وكيف كانت هذه الدنيا؛ فليتفكروا في خلق السماوات والأرض، وهذه الأجرام العظام، وهذه النواميس الكونية التي يسير بها هذا الكون العظيم، لا يُمكن أن تكون غلا من عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- الخالق المدبر -سبحانه وتعالى.
- ثم التفكر في خلق الإنسان، فأبواب التفكر كثيرة جدًّا، وهي من العبادات العظيمة، والله -عَزَّ وَجَلَّ- دعانا إلى التفكر في أنفسنا، فقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، أفلا تبصر أن الله خلقك وأحكمَ خلقك؟! والله -عَزَّ وَجَلَّ- جعل هذا الخلق مصيره إلى الفناء والموت!
- فلا شكَّ أنَّك وُلدتَّ لأمرٍ عظيم، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].
- فلا ترعى مع الهمل، واعرف الغاية التي خلقك الله -عَزَّ وَجَلَّ- لها، واستثمر الأوقات فيما يرضي ربك، ولهذا قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].
- قال الحسن البصري -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في عبادة التفكر: **"مازالَ أهل العلم يعودون بالتَّذكُّرِ على التَّفكُّر، وبالتَّفكُّرِ على التَّذكُّرِ"**، يعني ارتباط مسألة التَّفكُّر بالتَّذكُّر، لأنَّ التَّفكُّر يورثك التَّذكُّر، والتَّذكُّر هو أن تتذكر وجود الله -عَزَّ وَجَلَّ- وخلقه وما أعده الله -عَزَّ وَجَلَّ- لأهل الإيمان، وما أعدَّه الله لأهل الطغيان والكفر في الترابط بين عبادة التَّفكُّر والتَّذكُّر، فهي ذكرى وموعظة.
- قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **"مازالَ أهل العلم يعودون بالتَّذكُّرِ على التَّفكُّر، وبالتَّفكُّرِ على التَّذكُّرِ، ويُناطقونَ القلوبَ حتَّى نطقَت، فإذا لها أسماعٌ وأبصارٌ"**، يعني: كأنها تسمع وتبصر؛ لأن القلوب حيَّة، ومن أعظم ما تُحيا به القلوب عبادة التَّفكُّر، ولهذا فإن الله -عَزَّ وَجَلَّ- أمرنا بالتَّدبُّر الذي هو من مراتب التَّفكُّر والذي يُورثُ التَّذكُّر، فقال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].
- فهذه القواعد كلها التي ذكرها الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- من هذا الباب.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثامنة والخمسون: الكمال إنما يظهر إذا قُرن بضده)}.**

- يُقعِّد الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فيقول: (إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة أراهم نقصها في غيرهم من المستعدين للكمال.
- لما أراد الله إظهار شرف آدم على الملائكة بالعلم، وعلمه أسماء كل شيء ثم امتحن الملائكة فعجزوا عن معرفتها، فحينئذ نبأهم آدم بها، فخضعوا لعلمه، وعرفوا فضله وشرفه).
- ولو تتبَّع السياق القرآني في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠- ٣٣]، ولهذا أمر الله -عَزَّ وَجَلَّ- الملائكة بالسجود لآدم، وامتنع إبليس لما أراد الله -عَزَّ وَجَلَّ- له الغواية والشقاوة.
- قال الشيخ: (ولما أراد الله إظهار شرف يوسف في سعة العلم والتعبير رأى المَلِكَ تلك الرؤيا)، فظهر شرف يوسف بعلمه بتأويل الأحاديث وتعبير الرؤى، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف: ٤٥، ٤٦]، فظهر فضل يوسف -عليه السلام.
- ولهذا قال الملك له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، مكَّنه واستأمنه، وذلك لما قال له يوسف: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، فالملك ولَّى يوسف، واختار يوسف نوع الولاية، فهو لم يطلب الولاية، وهذا من اللفتات العلمية المهمة في سياق الآيات.
- وكذلك مع موسى وفرعون، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، [لأعراف: ١١٦]، فكانت النتيجة: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧] ؛ فظهر فضل موسى.
- ولما ظهرت هذه الآية وظهر فضل موسى كانت النتيجة: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠]، لأنهم سحرة ويعرفون هذا الشيء.
- وهكذا مع نبينا محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الغار، وفي يوم حنين، وفي يوم بدر، وفي مواقف عظيمة جدًّا أظهر الله -عَزَّ وَجَلَّ- فضل نبينا محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة التاسعة والخمسون: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾).

- هذه القاعدة آيةٌ من آيات الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهي عظيمة، وتعنى بمسألة الاهتداء بالقرآن، فالقرآن من أعظم أسباب الاهتداء، والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عنونَ بآية ليُبيِّن أنه ليس ثَمَّ أبلغ من كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ- في البيان، فهذا هو شعار أهل الإيمان، وهو أنَّ القرآن يهدي للتي هي أقوم في كل شيء، في العقائد، والأعمال، والسياسات، والصناعات.

- ومعنى "أقوم": أكمل وأصلح وأعظم قيامًا وإصلاحًا للناس، وعاقبة عاجلًا وآجلًا، في الحال والمآل.
  - أما العقائد: فهي العقائد النافعة في القرآن، وغذاء القلوب فيها ولا شكَّ في ذلك، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فلا شكَّ في ذلك.
- العقائد النافعة فيما يتعلق بربوبية الله -عَزَّ وَجَلَّ- وبألوهيَّته، وبأسمائه وصفاته، وبما يستحقه -سبحانه وتعالى- وبأركان الإيمان؛ كلها موجودة في القرآن، فهذا أمر واضح.
  - وأمَّا الأخلاق: فإن القرآن أرشد إلى كل خلق جميلٍ، وذلك في مواضع كثيرة جدًّا في القرآن، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال الله -عَزَّ وَجَلَّ- لنبيه موسى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، وقال تعالى في وصية لقمان: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨]، آيات كثيرة جدًّا في الأخلاق والآداب والتعامل والمناظرات، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- يهدي للتي هي أقوم في كل الأخلاق الفاضلة.
- قال تعالى: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ولهذا عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- لما سُئلت عن خلق النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قالت: "كان خلقه القرآن".
- وكان عمر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وقَّافًا على حدود الله، فلمَّا دخل ذلك الرجل واشططَّ في الكلام على عمر، فذكَّره من كان في المجلس بقول الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].
  - وأما الأعمال: فإنَّ القرآن يهدي إلى أداء الحقوق، حق الله، حق العباد، حقوق الأيتام، العدل مع القريب والبعيد والعدو، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨].
  - وفي السياسات: تحصيل المصالح ودفع المفاسد، وهذا باب عظيم، السياسة الشرعية، والسياسة الدوليَّة، والعلاقات الدوليَّة، وعلاقات الحرب والسلم؛ فهذه السياسات موجودة في القرآن.
  - كذلك في مسائل الحرب والسلم قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].
  - من أبواب السياسة في التعامل مع الدول، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ [آل عمران: ١١٨].
  - وفي التعامل مع الأعداء المنافقين، قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].
- والمطلوب من أهل الإيمان أن يُقبلوا على كتاب ربهم، وأن ينهلوا من علومه، وينتفعونَ به، وهذا لا يكون إلا بتوفيق الله -عَزَّ وَجَلَّ.
- وحتى سياسة المسلم مع أولاده وخادمه وأصحابه موجودة في القرآن، ولهذا فإنه يُطلب منك أن تتعلم هذا القرآن، قراءةً وحفظًا وعملًا وتدبُّرًا.

- ونقول لأهل الإيمان ولأهل الإسلام في هذا الزّمان: أقبلوا على القرآن، فإن القرآن ميسَّرٌ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، فهو ميسَّرٌ في حفظه وفي الانتفاع به، وفي التعلُّم منه، فعلوم الأولين والآخرين موجودة في القرآن، وكذلك ما يتعلق بأحوال الشخصيَّة، وما يتعلق بحياة الإنسان وعلاقته في أسرته ومجتمعه، فينبغي للإنسان أن ينهل من هذا المورد العظيم، ومهما طرق الإنسان هذا الباب وأقبل عليه فإنه سيجد أنه مقصِّرٌ في حق كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- وكلنا أهل تقصير في قراءة القرآن، وفي التَّعلُّم منه، وفي التَّدبُّر، وفي معرفة غريب القرآن، فتجد أهل الإسلام الآن يقرؤون القرآن، ولكن ما يعرفون غريب القرآن ولا يتعلَّمونه، يعني ألفاظه التي لا يُتصوَّر معناها الصحيح، فيحتاج الإنسان أن يعرف غريب القرآن، ويعرف ما فيه من الآيات ويتدبَّر، ويقف عند الآيات ويُحرِّك بها قلبه.
- والنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- قام في قيام الليل بآية واحدة، وهي قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وأخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- ما سيكون بعد ذلك في العرض والجزاء والحساب، فهذه الغيبيات مذكورة في القرآن، وسيكون إليه المآل.
- فمطلوب من أهل الإيمان أن يهتدوا بالقرآن، وهذا لا يكون إلا بأن يسأل الإنسانُ ربَّه أن يوفقه للانتفاع بالقرآن العظيم غاية الانتفاع، قراءةً وعلمًا وحفظًا وتدبُّرًا.
- وهذا كما أنه واجبٌ على الأفراد فهو واجبٌ على الدُّول وعلى الأمم، وعلى مَن يريد لهذه الأمَّة أن تنتصر، وأن تظهر على مَن عاداها؛ فعليهم أن يعتصموا بكلام الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهذا الاعتصام ليس اعتصامًا حسِّيًا فقط؛ بل حسيًّا علميًّا واقعيًّا حقيقيًّا، يراه الناس مشاهدًا حتى يكون لهم هذا الظهور والعلو.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس الحادى عشر



بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

❑ {نشرع في هذه الحلقة -بإذن الله- من قول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الستون: أنواع التعليم القصصي في القرآن)}.

- الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- وأجزل له المثوبة يقول: (من قواعد التعليم التي أرشد الله إليها في كتابه، أن القصص المبسوطة يجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها، وأن الأمور المهمة ينتقل في تقريرها نفيًا وإثباتًا من درجة إلى أعلى أو أنزل منها)، وهذا بحسب المقام.

◆ وثَمَّ سؤالٌ يُطرح هنا: ما الفائدة من الأسلوب القرآني؟

- بيَّن الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أنَّ هذا الأسلوب مُفيد من وجهين:

✸ الوجه الأول: تشويق القارئ لمعرفة تفاصيل القصَّة، فإنَّ القارئ لكلام الله -عَزَّ وَجَلَّ- والسامع لكلام الله -عَزَّ وَجَلَّ- إذا أُجمِلَت القصَّة فإنه يتشوَّق لمعرفة التفصيل.

✸ الوجه الثاني: حصول الإيضاح والبيان بعد تهيُّؤ النفس لهذا القبول.

- وذكر الشيخ أنَّ القُرآن مليء بهذا الأسلوب، والله -عَزَّ وَجَلَّ- قال في مطلع سورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، ثم ساق أحداث القصَّة العظيمة، وهي قصة يوسف مع إخوته، ثم ختمها الله -عَزَّ وَجَلَّ- بظهور يوسف، وبتحقق هذه الرؤيا التي رآها يوسف -عليه السلام- في صغره وقصَّها على أبيه.
- ولهذا كانت القصة القرآنية عظيمة النفع والانتفاع لمن سمعها ولمن تلا كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ- بتدبُّرٍ وتعقُّلٍ.
- وكذا في قصة أصحاب الكهف، فإن الله -عَزَّ وَجَلَّ- أجملها ثم فصَّلها، وكذلك في قصَّة موسى، وذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- قصة موسى في مواضع يُجمل ويبسط، وفي كل موضع من مواضع كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- تجد في سياق القصة أحداث يضمنها الله -عَزَّ وَجَلَّ- في القصة ليستفيد الناس، ويتعلموا من هذه القصَّة العظيمة.
- كذلك في قصَّة آدم -عليه السلام- أبي البشر، فإن الله -عَزَّ وَجَلَّ- ذكرها في سورة البقرة، وفي سورة الأعراف، وفي مواضع من كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ- يجملها ويفصلها لهذه المعاني.
- وهذا موجود في القصص القرآني، ولهذا فإن من أعظم وسائل التربية للأبناء وللمجتمع أن يُعلَّمون هذا القصص القرآني؛ لأن هذا القصص وحيٌ من عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- وفيه من العبر والعظات والفوائد والدروس ما لا يُحصَى؛ لأنه وحيٌ من عند الله -عَزَّ وَجَلَّ.
- وأمَّا التنقُّل في تقرير الأشياء من أمرٍ إلى أمرٍ هو أولى منه، هذا في الحجاج وفي رد الشبهة، وفي رد الباطل الذي يعتقده أهل الأرض والبشر من ادَّعاءات باطلة، ومن عقائد فاسدة، من ذلك أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- ذكر ما ادَّعاه النصارى في عيسى، وما ادَّعاه بعض اليهود في عُزير، وهو ادَّعاء الولد لله -سبحانه وتعالى- تنزَّه وتعالى وتعاظمَ عن أن يكون له ولد -سبحانه وتعالى- وهو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، تعالى في عظمته وفي جبروته -سبحانه وتعالى.
- قال -عَزَّ وَجَلَّ- في نفي هذه العقيدة الباطلة، وبيان أنها متهافتة في تصورها: ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾، [الكهف: ٥]، يعني: ادِّعاء الولد، فليس لهم علم، وليس لهم بقيَّة من العلم.
- ثم قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، [الكهف: ٥]، ثم قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، فلم يبدأ بوصف ما يقولونه بأنه كذبًا؛ بل تدرج في تقرير الإنكار عليهم؛ لأنهم ليس عندهم علم، وهذا العلم ليس موروثًا من الآباء ولا الأجداد، وهو ليس بعلم، وإنما هو شبهة شيطانيَّة ألقاها الشيطان عليهم، ثم بعد ذلك بين الله -عَزَّ وَجَلَّ- أنَّ هذا كذب، وفي مواضع كثيرة يُبين الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن ادِّعاء الولد له -سبحانه- يُنافي الربوبية، ويُنافي أن يكون هو الرب -سبحانه وتعالى.
- ولهذا فإن هذه العقيدة المتهافتة -عقيدة النصارى- تحمل في مضامينها التناقض، وتحمل في مضامينها ما يبطلها، ولكن كونهم ألفوا هذا الباطل وتوارثوه واعتقدوه؛ جعلهم يتصورون أن هذه عقيدة صحيحة، وإلَّا فهي عقيدة تأباها الفطر السليمة، والعقول الصحيحة، وهذا ما ذكره الله -عَزَّ وَجَلَّ- في مواضع من كتابه -سبحانه وتعالى.

- كذلك منكرو البعث الذين يُنكرون أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- يبعث الناس إلى يوم الدين وإلى يوم الحساب، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾، [النمل: ٦٦]، يعني: علمهم ضعيف لا يُمكن أن يصل إلى العلم بما أخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- وبما سيكون عند خراب العالم وقيام الساعة.
- ثم قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾، والشَّاكُّ ليس عنده علم، بل هو متردد، والشَّاكُّ لا يُنسَبُ له علم؛ لأنه متوقفٌ ومتردّدٌ.
- ثم قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾، [النمل: ٦٦]، والعماية والعمى آخذات بالحيرة والضلال، فكيف يُؤخَذ من هؤلاء اعتقاد، أو يُقبل اعتقادهم في إنكار البعث، وأنهم يُنكرون أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- يبعث الناس بعد موتهم.
- وكذلك في حق النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- حينما تُكُلِّمَ فيه، وقيل فيه ما قيل من الباطل من ادِّعاء أنه ساحر وكاهن، إلى غير ذلك من الدعاوى التي يُراد بها دفع ما جاء به من الحق -عليه الصلاة والسلام.
- قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢]، فنفى عنه الضلال والهوى، فهو ليس بضالٍّ وليس بصاحبِ هوى، وأنتم تعرفون ذلك مما ألفتموه من سيرة هذا النبي الكريم الذي هو من أنفسكم، يعني: خرج منكم ومن أنفس قبائل العرب، وتعرفون صدقه وأمانته وبُعْدَه عن الرِّيَب والشَّك، وبعده عن الخنا والفساد، فهو مكث فيكم أربعين سنة، وأنتم لم تلاحظوا عليه شيء مما يُعاب.
- ثم قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]، ثم بيَّن أن هذا الوحي ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥]، وهو جبريل، فهو تلقى الوحي بواسطة جبريل، من الله -سبحانه وتعالى- وهذا الوحي هو كلام رب العالمين في القرآن الذي لم يزد النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- ولم يُنقص منه حرفًا؛ بل بَلَّغ البلاغ المبين، وأدَّى الأمانة كما أمره الله -عَزَّ وَجَلَّ.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الحادية والستون: معرفة الأوقات وضبطها حث الله عليه، حيث يترتب عليه حكم عام أو حكم خاص)}.**

- هذه الأوقات جعل الله -عَزَّ وَجَلَّ- الشعائر -وهي العبادات- مُوقَّتة، إمَّا الشعائر الحوليَّة، أو الشعائر اليوميَّة، وأعني بالشعائر الحوليَّة التي لا تتكرر في العام إلا مرة واحدة، مثل الصيام والحج والزكاة، والشعائر اليومية والتي رأسها وعمدتها الصلاة، التي جعل الله -عَزَّ وَجَلَّ- لها أحكامًا تخصها، ومواقيت معلومة، يُراعيها الإنسان في أي زمانٍ وفي أي مكانٍ، ولهذا فإن الأحكام العامة والخاصَّة مترتبة على مُددٍ وأزمنة تتوقف الأعمال عليها، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فأمَّة محمد أمَّة تعتقد بالأشهر القمريَّة، فالأشهر القمرية هي المعتبرة في المواقيت، وهذه الأهلَّة يُعرَف بها وقت شهر رمضان، ووقت شهر ذي الحجة.
- ومن رحمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن الله ربط هذه الشعائر بهذه الأشهر القمرية؛ لأن هذه الأشهر يراها الناس جميعًا، ويستوي فيها العالم والأمي؛ لأنه يرى القمر، فيرى بدو القمر وظهوره، وهذا لا يحتاج إلى تعلم، وهذا من رحمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالأمَّة وبالبشر، ومن صلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان، ولهذا رتَّب الله عليه المواقيت.

- ومن ذلك عدَّة المطلقة، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، فالمرأة تحصي العدَّة وتعرفها بهذه الأشهر القمريَّة.
- وقال -عَزَّ وَجَلَّ- في الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

فما من إنسان من أدنى درجات العلم إلا ويعلم المواقيت، فإنه يعلم دخول وقت الفجر، ويعلم متى يخرج وقت الفجر وهذا بطلوع الفجر، ويعلم وقت الظهر بزوال الشمس، ويعلم وقت العصر ببلوغ الظل مثليه، ووقت المغرب بغروب الشمس، ووقت العشاء بغيبوبة الشفق الأحمر؛ فهذه المواقيت مرتَّبة، وضبطها سهل على كل أحد، وهذا من يسر هذا الدين.

- إذن؛ الله -عَزَّ وَجَلَّ- أمر بمعرفة هذه المعني والمواقيت، وأن يتعلمها المؤمن، وهي من فروض الأعيان، يعني من العلم الذي يُفترَض بكل مسلم أن يعرف؛ لأنه ميسور وسهل ويتصوره كل أحد، قارئ أو غير قارئ، ولهذا فإنَّ ضبط الحساب وإحصاء العدد جاء في القرآن، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- في مقام الامتنان أنه -عَزَّ وَجَلَّ- ربطنا بالليل والنهار، قال: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢]، فالإنسان يُدرك بذلك عدد السنين والحساب والمواقيت، وهذا من يسر هذا الدين، ومن سماحة هذا الدين، ولو أحلنا الناس على غير هذا الحساب -غير الأشهر القمريَّة- لربما تعذَّر عليهم معرفة الأشهر وتعدادها، فهذا يحتاج تعلم وتذكر، ولكن الأشهر القمرية ميسورة جدًّا، فيعرف الإنسان أول الهلال، ثم ينتصف، ثم يكون آخر الشهر، فهو يعرفه بالقمر، وهكذا سائر مواقيت الشريعة، فهذه الشعائر عظيمة جدًّا، ولابدَّ لأمَّة الإسلام أن تحافظ عليها؛ لأن هذا رسمها، وهذا شعارها الذي تتميَّز به عن غيرها من الأمم، وهي أمَّة الحساب بهذه الأشهر، التي جعلها الله -عَزَّ وَجَلَّ- مواقيتًا للناس.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثانية والستون: الصبر أكبر عون على جميع الأمور، والإحاطة بالشيء علما وخبرا هو الذي يعين على الصبر)}.

- هذه قاعدة عظيمة جدًّا، وهي تحمل في مضامينها جانبًا تربويًّا عظيمًا يحتاج الإنسان أن يتعلَّمه، وأن يتدبَّره، وأن يُعطيه حقَّه من النظر ومن التَّأمُّل، ولهذا فإن الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بيَّن أن هذه القاعدة عظيمة النفع؛ لأن لها آثار، قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، [البقرة: ٤٥]، فلاحظ أن الله أمر بالاستعانة بالصبر والصلاة، وما ذاك إلا لأن الصبر والصلاة فهما خير عونٍ للمؤمن في طريقه إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ.
- والصبر يسهل على العبد القيام بالطاعات وأداء الحقوق، ودونَ صبر لا يُمكن أن تؤدِّي الفرائض، ولا يُمكن أن تؤدِّي الحق الذي أوجبه الله عليك.
- وبالصبر يسهل ترك هوى النفس؛ لأنَّ هوى النفس مخالفة الصبر، فإن الإنسان يصبر على هوى النفس، ويقمع هذه النفس، ويجعلها تذعن بالصبر.

- بالصبر يقوى على تحمل المصائب؛ لأن الإنسان في طريقه إلى الدار الآخرة لابدَّ أن يكون عليه مَصائب وفوات، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].
- فهذه قضية مُهمَّة جدًّا، وهي أنَّ الإنسان بحاجة إلى الصبر والصلاة، ولهذا قرنَ الله بينهما، وكان النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- إذا حزبه أمرٌ فزع غلى الصلاة، فلاحظ وتأمَّل يا عبد الله أن المزع إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- وإلى الصلاة، ولا يُمكن للإنسان أن يصبر على هذا الطريق الذي هو سائرٌ فيه إلَّا بمثل هذه الأمور التي ذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- وأمر بالاستعانة بها.

كيف يصل الإنسان إلى الصبر؟

- يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وهي معرفة الشيء المصبور عليه، ومعرفة ما فيه من الفضائل وما يترتب عليه من الثمرات)، فإذا علم ذلك هانَ عليه الصبر وقوي عليه، كالدَّواء كريه الطعم والرائحة، فإن الإنسان يتجرعه وهو كاره له ولا يلتذ به، ولكن يستسيغه ويتحمل مشقَّة هذا الطعم المر والرائحة الكريهة لأنه يعتقد أن شربه لهذا الدواء له عاقبة حميدة، فهكذا الصبر فيه مرارة، ولكن عاقبته حميدة، فإذا عَلم العاقبة هانَ عليه الصبر وسهل عليه.
- قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وبهذا فضل العلم، وأنه أصل الفضائل كلها ولهذا يذكر الله تعالى كثيرًا في كتابه أن المنحرفين في الأبواب الثلاثة ما انحرفوا إلا لقصور علمهم)، يعني: العلم يفيدك بعاقبة الصبر، فإذا علمت الصلوات الخمس والمحافظة عليها، وعلمت ما فيها من الفضل، وما فيها من الخير، وما فيها من الأجر؛ فبهذا العلم تقوى على الصبر.
- وإذا علمت أخطار المعاصي، وأنها جراحات، وأن لذئذها وقتيَّة، وأمَّا مرارتها فباقية معك إلى آخر الزَّمان؛ فهذا يتبيَّن لك بالعلم، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، [فاطر: ٢٨]، وقال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، [النساء: ١٧]، فما من أحد يقع في معصيةٍ من المعاصي إلا بسبب جهله بعاقبة هذا الأمر، وإلَّا لو علم عاقبة هذه المعصية وما فيها من النكال والعقاب العاجل والآجل لنتهى ولم يقع فيها.
- وفي قصة الخضر لما قال لموسى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾، [الكهف: ٦٧-٦٨]، قال الشيخ: (فعدم إحاطته به خبرا يمتنع معه الصبر، ولو تجلد ما تجلد فلابد أن يُعال صبره)، وهذا وقع مع موسى في المرة الأولى والثانية، وفي الثالثة لم يستطع أن يصبر، فقال له الخضر: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]، وهذا يفيدك أن العلم بالعواقب يسهل عليك الصبر، وقال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾، [يونس: ٣٩]، يعني: كذبوا لعدم إحاطتهم بما هو عليه القرآن والإسلام من الحق والنور والهدى، ولو أدركوا ذلك على وجهه الحقيقي لأذعنوا وصدقوا.

- وعمدة أهل الباطل ضد دين الإسلام أنه يصدُّونَ عنه بالدِّعايات المضللة والأكاذيب والترهات التي تعرض للناس في هذا الطريق، وإلا لو أبصروا الإسلام على حقيقته لعلموا أن فيه خيري الدنيا والآخرة، مصالح الناس في دنياهم وأخراهم متعلقة بهذا الدين القويم الذي ارتضاه الله -عَزَّ وَجَلَّ- للناس، الموافق للفطرة في أحكامه وفي تشريعاته، ولهذا فإن الله -عَزَّ وَجَلَّ- من حكمته أن جعل الصراع بين الحق والباطل، فأهل الحق يحتاج منهم أن يدافعوا عن هذا الحق، وأن يصوروه على حقيقته، قال تعالى: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فالإنذار الكامل والبلاغ الكامل واجب على الأمَّة، وأن تبيّن هذا الدين وما فيه من السماحة والخير؛ لأنَّ سبب عدم إذعان المشركين له أنهم كذبوا بما لم يحيطوا به علما، ولمَّا يأتهم تأويله، لأن وقوع هذا التأويل إنما يكون في الآخرة، لأنَّ الآخرة يتميَّز بها أهل الجنة من أهل النار، فالإنسان قد يغتر بطوال أمد الباطل وبظهوره في أوقات وفي أزمنة، وقيامه وعدم انكساره؛ فلا يفتر عن طريق الحق، بل يصبر ويصابر، لأن مهمَّة المؤمن أن يسير في الطريق حتى يحل الأجل، وثباته حتى يحل الأجل، ويسأل ربه الثبات والاستقامة حتى تخرج هذه الروح من الجسد وهو مقيم على منهاج النبوة، منهاج محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- صابرًا على هذا الطريق، وما فيه من الشدائد ومن المعادة، ومن الخصومات التي ستجري عليه حتمًا، ولكنه ثابت يسأل الله العون والسداد والتوفيق، حتى يصل إلى المراد.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثالثة والستون: العبرة بصدق الإيمان وصلاح الأعمال)}.**

- يقول الشيخ: **(يرشد القرآن إلى أن العبرة بحسن حال الإنسان وإيمانه الصحيح وعمله الصالح، وأن الاستدلال على ذلك بالدعاوى المجردة أو بإعطاء الله للعبد من الدنيا بالرياسات والأمور الدنيوية والتقاليد الموروثة: كل ذلك من طرق المنحرفين).**

- بعبارة أخرى: عطاء الله -عَزَّ وَجَلَّ- للعبد في الدنيا ليس ميزانًا لقربه منه، ولهذا فإن الله -عَزَّ وَجَلَّ- ذكر هذا في مواضع كثيرة جدًّا، قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾، [سبأ: ٣٧]، فكثرة المال والولد ليست دليلًا على أن له منزلة عند الله، ولهذا قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨]، لأن أعظم وسائل التكاثر هي المال البنون، قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]؛ فلن يسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن مالك ولا عن أبنائك كم هم! فإن عطاء الله -عَزَّ وَجَلَّ- متعلق بالربوبية، يعطي المؤمن والكافر والبر والفاجر وفق حكمته التي يُريدها -سبحانه وتعالى- ليس لها تعلقٌ بالمنزلة الأخروية أبدًا.

- وقال الله -عَزَّ وَجَلَّ- مبيّنًا أن هؤلاء ظنوا أن إعطاء الله -عَزَّ وَجَلَّ- لهم في الدنيا ما يعطيهم أنهم مكرمون عنده، ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، ظنوا أن كثرة المال والولد دليل على أن لهم منزلة عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- وغرَّهم هذا الغنى والتَّرؤُّس والرياسات فقالوا: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]. قالوا: أهل الإيمان الذين يجري عليهم النقص في المال والولد والفقر: نحن أحسن ناديًا وأثاثًا ورِئْيًا وأموالًا! فمن تسويل الشيطان لهم أن جعلوا ذلك هو المنزلة.

- والله -عَزَّ وَجَلَّ- أعطى فرعون ملكًا عظيمًا، فقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، يقصد موسى -عليه السالم- وهو عند الله وجيهًا، فهذا الذي يحتقره فرعون الخبيث اللعين المطرود من رحمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- وجيهًا عند الله، فهو ظنَّ بقوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]، يعني: كيف تغفلون عن هذا وتتبعون هذا الذي هو مهينٌ وذليل! والحق أن فرعون هو الذليل، أما موسى فهو عند الله في المقام العظيم -عليه الصلاة والسلام- ولكن غرَّ فرعون النَّظر إلى الأمور الدنيوية.
- وفي قصَّة صاحب الجنة لَمَّا دخل الجنة ورأى ما فيها، قال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦]، فظنَّ أن إعطاء الله -عَزَّ وَجَلَّ- له في الدنيا كرامة، وأنه في الآخرة مُكرَم! وهذا لا يُمكن؛ لأنه من الجهل ومن الانحراف الذِّهني والعقلي، ومن الغرور.
- ولَمَّا أنزل الله -عَزَّ وَجَلَّ- رسالته على محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- اعترضوا، فقال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فالله تعالى أعلم بالمحال التي هي محل لقبول هذه الرسالة، ولهذا اصطفى محمدًا -صلوات ربي وسلامه عليه.
- وانظر ماذا قال المعاندون والجاهلون لربهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، [الزخرف: ٣١]، يقصدون الوليد بن المغيرة والوليد بن عقبة؛ يشترطون على الله -عَزَّ وَجَلَّ!
- يظنون أن هؤلاء معظَّمون ولهم كثرة من المال والولد، فهم يستحقون أن تكون لهم رياسات، والله -عَزَّ وَجَلَّ- نفى هذا، وبيَّنَ أنَّ الميزان بالعمل الصالح.
- ولما ضحك أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- على عبد الله بن مسعود لَمَا أراد أن ينتزع عود أراكٍ للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- ثم سقط فرأوا دقَّة ساقيه؛ قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- لما ضحكوا على دقَّة ساقي عبد الله بن مسعود: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»[٤٤]، الله أكبر!
- إذن؛ الموازين في الآخرة غير الموازين في الدنيا، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «إنَّه لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَومَ القِيامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ»[٤٥]، فالعمدة في العمل الصالح، ولهذا لا تحتقر الناس أو تزدريهم بناءً على عطاء الله -عَزَّ وَجَلَّ- لهم، وفي الحديث: «رُبَّ أشْعَثَ أغبرَ ذي طِمرَينَ مدفوعٍ بالأبوابِ لَو أقسمَ علَى اللَّهِ لأبرَّهُ»[٤٦].

طمرين: ثوبين رثيثين.

- مدفوع بالأبواب: يعني لا قيمة له في ميزان الناس، لأن تقدير الناس في الغالب إنما يكون بهذه الأمور المادِّيَّة، وهذا لإغراقهم في المادِّيَّات، وأهل البصائر لا ينظرون بهذا، وأهل الماديات لا ينظرون إلا بهذه الموازين.

---

[٤٤] أخرجه أبو يعلى (٥٣١٠)، والطبراني (٩/٧٥) (٨٤٥٢)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١/١٢٧) باختلاف يسير، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٥٠).

[٤٥] صحيح البخاري (٤٧٢٩)، صحيح مسلم (٢٧٨٥).

[٤٦] أورده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/٢٦٩)، وأصله في صحيح مسلم (٢٨٥٤) بلفظ " رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبْوابِ، لو أَقْسَمَ علَى اللهِ لأَبَرَّهُ".

- قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، الواجهة هنا ليست وجاهة الدنيا، ولكن الوجاهة في الآخرة، والمنزلة الحقيقية هي منزلتك عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهذا لا تناله بشرف النسب والحسب، ولا بكثرة المال والولد؛ وإنما تناله بصدقِ ما في قلبك من القبول للحق والوحي والهدى، والله أعلم بهذه القلوب -سبحانه وتعالى- نسأل الله أن يرزقنا القلوب السليمة المخبتة المنيبة لله -سبحانه وتعالى.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الرابعة والستون: الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعجات أو الشبهات قد تَردُ على الحق وعلى الأمور اليقينية ولكن سرعان ما تضمحل وتزول)}.

- قال الشيخ: (وهذه قاعدة شريفة جليلة)، وهي كذلك من القواعد التربوية التي اشتمل عليها هذا الكتاب الماتع النافع، أجزل الله لمؤلفه المثوبة، وغفر الله له، وجمعنا به في جنته.
- قوله -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (الأمور العارضة التي لا قرار لها)، هذا العارض له أمدٌ وانقضاء.
- قوله: (بسبب المزعجات أو الشبهات قد تَردُ على الحق وعلى الأمور اليقينية ولكن سرعان ما تضمحل وتزول)، وكأني بالشيخ يقول: السالك في طريقه إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- لابدَّ أن يعرفه أنه لابد أن تعرض له أمورٌ تُزعجه في طريقه وفي سيره إلى ربه -سبحانه وتعالى-، ولكن هذه لا بقاء لها، مثل سحابة الصيف التي تأتي سريعًا، ثم تزول سريعًا.
- ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أمثلة لذلك، منها: أنَّ الرسل هم أكمل الخلق إيمانًا ويقينًا وتصديقًا بوعده -سبحانه وتعالى- لأن الله اصطفاهم واختارهم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ولكن الله ذكر أنه قد يعرض لهم ما يستبطؤوا معه نصره تعالى، مع إيقانهم أن نصر الله آتٍ ولا محالة، ولهذا يقول الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ليس إخلافًا لوعده، فهم يوقنون بوعد الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولكن يستبطؤون النصر بسبب ما يعرض لهم من عظيم الابتلاء، ولهذا أمر الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالصبر على هذه المزعجات والعوارض، وللباطل صولة ولكنها لا تدوم، وللباطل شرَّةٌ ولكنها تضمحل عمَّا قريب.
- قال الشيخ: (ومن هذا الباب بل من صريحه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾) التَّمني هنا بمعنى القراءة. ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: من الآية٥٢]، قال الشيخ: (أيْ يلقي من الشبه ما يعارض اليقين)، ثم قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض﴾ [الحج: ٥٣]، فهكذا الشيطان يُلقي في قراءة الأنبياء من الباطل الذي يُريد به الصد عن الحق، ولهذا فإن الإنسان لابد أن يكون على معرفةٍ من هذا.
- ولمَّا شكا أصحاب رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- ما يجدونه ويتعاظمون أن يتكلموا به، فقال: "إنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ"، وهذا في صحيح مسلم[٤٧]، وفي بعض الروايات: "لأنَّ أَخِرَّ من السماءِ

---

[٤٧] صحيح مسلم (١٣٢).

أحبُّ إليَّ من أن أتكلَّمَ بِهِ"[48]، فهذا مما يعرض على القلوب من الوساوس، فقال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- لهم: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟»، يعني: أوجدتم هذا الإنكار، وأنكم أنكرتم هذه الوساوس والخطرات الشيطانيَّة التي ترد على قلوبكم؟ ولأجل هذا تتعاظموا أن تتكلوا به، ويتمنَّى أحدكم أن يموت ولا أن يأتيه هذا الخاطر الشيطاني؟! فقال -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ»[49]، يعني: ردَّ كيد الشيطان إلى الوسوسة، وفي بعض الروايات: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»[50]، فصريح الإيمان ليس خطرات الشيطان، وإنما هو إنكار تلك الخطرات.

- وهذا يُفيدك أنك في سيرك إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- لابدَّ أن تصبر، وأن تعرف أنه سيعرض لك المزعجات، إما في الابتلاءات الحسية التي تعرض إليك، من الظلم والتعدِّي والأكاذيب والأقاويل والأراجيف والأذى الذي سيصيبك وأنت في طريقك إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- وفي ثباتك على الحق الذي أنت تؤمن به، وإما ما يعرضه لك الشيطان الذي تملك إلا أن تستعيذ بالله من شره ومن وساوسه، ولكن المطلوب في كلا الحالين هو الثبات على هذا الطريق المستقيم.
- والله -عَزَّ وَجَلَّ- ما نفى أن تعرض للنفوس الوساوس، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فأخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن هذا الطائف من الشيطان، ولا يزال الإنسان في معركةٍ قائمةٍ بينه وبين الشيطان إلى آخر لحظةٍ من حياته، لأن الشيطان لا يزال يعرض لابن آدم المقيم على الإيمان وعلى العقيدة السليمة وعلى الحق حتى تخرج الروح من الحلقوم، فعند ذلك يُعلن الشيطان نهاية المعركة وخسارته في تلك الجولة.
- ولما قيل لعبد الله بن عباس: اليهود تزعم أنها لا توسوس في صلاتها! فقال عبد الله بن عباس: "وما يفعل الشيطان ببيت خرب"، لأن العقيدة فاسدة، فما يحتاجون لأن يُوسوسوا، ولكن أهل التوحيد وأهل الإيمان لابد أن يعرض لهم الشيطان، ويُحاول أن يوقع العداوة بينهم، يُحاول أن يؤثر على هذه القلوب بالتشكيكات، لأنه ما يزال يريد بالإنسان حتى يصرفه عن الصراط المستقيم، والمؤمن في كل ركعة من ركعات الصلاة يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، فيسأل ربه الهداية والمزيد من الهداية، والثبات، ويسأل الله حسن التام، والخروج من هذه الدنيا على أحسن وجهٍ وأحسن منزلةٍ.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



[48] أخرجه أبو داود (٥١١٢) واللفظ له، وأحمد (٢٠٩٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٥٠٣)، صححه الألباني.
[49] أخرجه أبو داود (٥١١٢) واللفظ له، وأحمد (٢٠٩٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٥٠٣)، صححه الألباني.
[50] صحيح مسلم (١٣٢).

الدرس الثانى عشر



بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

❑ {نشرع في هذه الحلقة -بإذن الله- من قول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: (القاعدة الخامسة والستون: قد أرشد القرآن إلى المنع من الأمر المباح إذا كان يفضي إلى ترك الواجب، أو فعل محرم)}.

- هذه القاعدة يُقعِّدُ لها علماءُ الأصولِ والفقهاءُ بقاعدة: "الوسَائلُ لها أحكامُ المقاصد"، وتارة يُعبِّرون فيقولون: "الأمورُ بمقاصدها"، وهذا في الشَّريعة الإسلاميَّة، فما يُفضي إلى محرَّمٍ وإن كانَ مباحًا؛ فإنَّ هذا المباحُ ينقلبُ إلى محرَّمٍ، وما يفضِي إلى أداءِ واجبٍ فإنَّه يكونُ واجبًا، وهكذا فالوسائل لها أحكام المقاصد.
- وهذه القاعدةُ الشَّرعيةُ قاعدةٌ إسلاميَّةٌ، قاعدةٌ لها اعتبارات ولها آثار، بخلاف القواعد التي يُقعِّد لها أهل الدنيا وأهل الماديَّات، وعلى رأسهم بعض السَّاسة المنحرفين عن الصراط المستقيم، الذين لم يعرفوا قيمة الوحي، منهم صاحب كتاب "الأمير" الذي يقول فيه: "الغاية تبرر الوسيلة".

- فما يُفضي إلى محرَّمٍ وإن كانَ مباحًا؛ فإنَّ هذا المباحُ ينقلبُ إلى محرَّمٍ، وما يفضي إلى أداءِ واجبٍ فإنَّه يكونُ واجبًا، وهكذا فالوسائل لها أحكام المقاصد.
- والإسلامُ لس فيه أنَّ الغاية تبرّر الوسيلة. إنَّما الوسائل لها أحكام المقاصد، وكون الغاية شريفة لا يُبرِّر أن تكونَ الوسيلة محرمة، ولابدَّ أن يُراعى هذا.

◆ السؤال الأول:

...... هي قاعدة إسلامية عظيمة ينقلب المباح فيها إلى مُحَرَّم إذا أَفضى إلى مُحرَّم.

الغاية تُبرر الوسيلة - **الوسائل لها أحكام المقاصد** – كلاهما صواب

- وذكرَ الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أمثلةً لذلك، وكذلك الفقهاء -رَحِمَهُم اللهُ تَعَالَى- ذكروا أمثلة، مثلًا: بيع السلاح وقت الفتنة، فذكروا أنه في الزمان السابق كان كل إنسان يبيع سلاحًا، وما كان فيه تنظيمات، ولكن يحرم ذلك في وقت الفتنة؛ لأن هذا السلاح سوف يُستخدم في الفتنة، فإنه يُمنَع منه، ولا يُقال إنه مباح، فهكذا يتحول الأمر المباح إلى محرَّم.
- وذكروا كذلك من الصور: مَن كان عنده عنبًا وأراد أن يشتري شخصٌ منه، وهو يعلم أنه سيتَّخذ هذا العنب خمرًا؛ فإنه لا يجوز له أن يبيعه؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد، فالأمر قد يكون مباحًا ويتحوَّل إلى محرَّم.
- وذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- فيما يتعلق بالعقائد في سبِّ آلهة المشركين، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فمن عقيدة المؤمن الكفر بآلهة المشركين، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، البراءة منهم، ولكن الإعلام والإعلان بسبِّ آلهتهم وهم يسمعون ذلك الأصل أنه مباحٌ، وأنه من الكفر بالطاغوت، وإعلان ذلك مطلوب، ولكن إذا ترتَّبَ على ذلك أن هذا السَّب سيعود على أنهم يتجرَّؤون على سب رب العالمين؛ فعند ذلك يكون هذا الإعلان بسبِّ آلهتهم محرَّم ومنهيٌّ عنه.
- وذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- ما يتعلَّق بزينة المرأة، فقال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، فالضَّربُ بالأرجلِ وبالزّينةِ الخفيَّةِ، وكونها تضرب بخلخالها الذي في رجلها لتُسمِعَ الرّجال فتُحرِّك الغرائز فهذا ممَّا منعه الله وحرَّمه، فالأصل أنَّ اتِّخاذ الزينة مباح للمرأة، لكن إذا كان هذا يترتَّب عليه مفسدة فيُمنَع منه.

◆ السؤال الثاني:

مَنْ كان يبيع السكين وتَيَقَّن أنَّ من يشتريه سوف يستخدمه في غضب الرحمن تعالى، فعليه أن لا يبيعه.

صواب

- فهذه قواعد شرعيَّة جاء القرآن باعتبارها وبالتَّنبيه عليها، وهذا يدلُّك على أنَّ هذا الدين دينٌ قويمٌ، دينُ الأخلاقِ الفاضلة، دينُ المعاملة الحسَنة مع الجميع، دينُ حفظِ الحقوقِ وأداءِ الحقوق، ودينُ الطَّهارة، وتحريمُ كل وسائل الخداع والتَّحايُل على الناس.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة السادسة والستون: من قواعد القرآن أنه يستدل بالأقوال والأفعال على ما صدرت عنه من الأخلاق والصفات)}.

- بيَّن الشيخ هذه القاعدة الجليلة، فذكر أن أكثر الناس يقصُر نظره على اللفظ دون أصله ومنشأ الأمر، وأن اللبيب ينظر إلى الأمرين، وقد تقدَّم ما يُقارب هذا المعنى، يعني أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- يُبيِّن صفات وهو يُريد معانٍ أخرى زائدة على هذه الصفات.

- ثم ذكر الشيخ صفات عباد الرحمن، ولم يذكر صفات عباد الرحمن إلَّا ليتأسَّى أهل الإيمان بهؤلاء الذين أثنى الله عليهم في كتابه، قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، فهذه معانٍ لوقارهم وحلمهم وأخلاقهم الفاضلة، وهي أنهم يمشون على الأرض هونًا، وهذا الهون يتضمَّن معانٍ كثيرةٍ جدًّا قد لا يتَّسع المقام إلى ذكرها من الأخلاق الفاضلة، ومن حسن الكلام ولينه، وعدم إيذاء الناس بالغمز أو باللمز، وبعدم رفع الصوت، والتَّعالي على الناس، معاني كثيرة جدًّا.
- وكذلك ذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن أهل الإيمان: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، هذا يدل على حسن الخُلُق، ونزاهة أنفسهم، وسعة عقولهم، وعظيم الحلم الذي عندهم، وأن عقولهم راشدة، وفيهم من الرَّزانة ومن الوقار ما يبعث على إكبارهم وما هم عليه من الأخلاق الفاضلة التي يتمثَّلونها تمثُّلًا حقيقيًّا تؤثِّر في قبول عقائدهم وما هم عليه من الاعتقاد الصَّحيح، لأنَّ الأخلاق الفاضلة لا تصدر إلَّا عن اعتقادٍ صحيحٍ، ولهذا قد يُسوَّق للباطل بإظهار الأخلاق الفاضلة، ولكن هذا التسويق ينقطع، أما أهل الإيمان وأهل العقيدة الصَّحيحة فإنهم يتَّخذون هذه الأخلاق الفاضلة ديانة.

◆ **السؤال الثالث:**

إذا سَوَّقَ البائع سلعته بالصدق وهو لا يؤمن به عقيدةً فقد حقق الإيمان.

خطأ

- ولهذا فإن القوانين في الدول المختلفة هي التي تربط سلوك الناس، ولكن هذه القوانين قد تتعرَّض في أي وقت من الأوقات إلى السُّقوط تحت تأثير أي واقع سياسي أو فوضى أو مظاهرات وما شاكل ذلك، فيتحول الناس إلى وحوش، لأن هذه الأخلاق لم تكن في القلوب، أما المؤمن في قلبه يجد الشيء الذي تستهويه نفسه فيمتنع عنه، ولو وجد أموالًا طائلة بين يديه فغنه لا يأخذها لأنه يعلم أن هذا من التعدي، فهذه أخلاق صادرة عن اعتقاد، فهذا هو الفرق بين أهل الإيمان وبين غيرهم، ولهذا فإن الإسلام انتشر في جهة الشرق الأقصى وما شاكله بسبب الأخلاق الفاضلة الصادرة عن تجار المسلمين، وهكذا الإسلام ينتشر بمثل هذا، فالإسلام عقيدة ومنهاج واخلاق، لابد للإنسان أن يترسَّمها وأن يتعامل بها، وأن يأطر نفسه إلى هذا ويُصابر

على هذا الطريق حتى يغنم من جهة الهداية للناس، ومن جهة نفسه، ومن جهة هذا الدين القويم الذي يتمنَّى أن ينتشر في أرجاء المعمورة.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة السابعة والستون: يرشد القرآن إلى الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق، للخروج من الشبهات والتوهمات)}.

- يقول الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: (يرشد القرآن إلى الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق)، يعني: الثَّابت.
- وقوله: (للخروج من الشبهات والتوهمات)، فالشُّبهة ليست بحق، والوهم ليس بحق، ولهذا يُقعِّدون ويقولون: "الموهوم لا يدفع المعلوم"؛ فلابد أن تكون مواقفك ناتجة عن يقينٍ، وكذلك قاعدة "والمجهول لا يعارض اليقين"؛ فهذه قواعد معتبرة، وقاعدة "اليقين لا يزول بالشَّك".
- ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].
- وعاتب الله -عَزَّ وَجَلَّ- أهل الإيمان في قصَّة الإفك والافتراء على عائشة بنت الصديق -رضي الله عنها وأرضاها- فقال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾، [النور: ١٢]، لاحظ هنا، الرجوع إلى الأصل في السلامة والبراءة والظَّن بها -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- فإذا علمتَ أنتَ من نفسكَ أنَّها لا تقع منك؛ فكيف بها المؤمنة الصِّدِّيقة بنت الصديق، على أمر مشكوك موهوم، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، فهذه أمور لابدَّ للإنسان أن يعتبر بها، وأن يعرفها، وأن يُغلِّب حسنَ الظَّنِّ، ويُغلِّب اليقين، أما كون الإنسان يتلقَّى الأمور ويُسقط القواعد والاعتبارات بأي واردٍ يرد عليه؛ فهذا من الجهل ومن قلَّة العلم ومن سفه العقل، فالإنسان لابد أن يكون رزينًا في مواقفه، وهذا ما أمر الله -عَزَّ وَجَلَّ- به، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، فأمر الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالتَّبيُّن، وهذا التَّبيُّن فيه تريُّث وعدم استعجال، قال: ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾، وهذا بسبب عدم التَّبيُّن، ثم يعقب ذلك: ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾، فعاقبة عدم التَّبيُّن هي النَّدم، وعاقبة إعمال الشَّك النَّدم، وعاقبة إعمال المجهول مع وجود المعلوم النَّدم والحسرة، ووقوع ما لا يُحمَد عقباه من المواقف والتصرُّفات، فهكذا ينبغي للإنسان أن يتأدَّب بآداب القرآن وبما وجَّه الله -عَزَّ وَجَلَّ- في كتابه -سبحانه وتعالى- أهل الإيمان إلى أن يلزموه.

◆ السؤال الرابع:
قوله: ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ يدل على أنَّ عاقبة عدم التَّبيُّن وإعمال الشَّكِّ هي النَّدم.
صواب

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة الثامنة والستون: ذكر الأوصاف المتقابلات يغني عن التصريح بالمفاضلة إذا كان الفرق معلومًا)}.

- وهذا في القرآن كثير، يعني أن يذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- أوصاف المتقابلات، وهذه المتقابلات يُغني عن التَّصريح بالمفاضلة، ليجعل السامع والقارئ يتّصوَّر التَّصوُّر والنَّتيجة من نفسه.
- قال الشيخ: **(ويذكر تباين الأوصاف التي يعرف العقلاء بالبداهة التفاوت بينها ويدع التصريح بالمفاضلة)**، ومن ذلك قول الله -عَزَّ وَجَلَّ: **﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾** [يوسف: ٣٩]، ما في جواب هنا، ولكن الجواب ببداهة العقول أنَّ مَن يعبد الوحد الأحد خير من أن يعبد أربابًا متفرقة.
- قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: **﴿آللَّهُ خَيْر أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** [النمل: ٥٩]، فالعقل ببداهته يُدرك أن المعبود الواحد خير من الآلهة المتعددة.

◆ **السؤال الخامس:**

لم يأت الجواب في قوله: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾: لأن العقول تدركه بداهة.

صواب

- وبيَّن الله أنَّ سلوك الإنسان الذي يعبد أكثر من معبودٍ فيه تشتت في النفس، قال -عَزَّ وَجَلَّ: **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾** [الزمر: ٢٩]، يعني مَن يعبد إلهًا واحدًا لا يستوي هو ومَن يعبد آلهة مُتعددة، كمن له سيدٌ واحد ومَن له عدَّة أسياد؛ كلٌّ يُريد منه طلب، فمن له سيد واحد لا شكَّ أن يسعى في رضاه، وهذا مطلوب أهل التوحيد، فأهل التوحيد ما يعبدون إلا الواحد الأحد، فيطلبون رضى الواحد، ويعلمون أن النفع والضر منه، فيتوكلون عليه، ويُخبتون إليه، ويلتجئون إليه، ويعلمون أنَّ الضُّرَّ والنَّفعَ بيده -سبحانه ونتعالى- وهذا بخلاف مَن يُشرك مع الله آلهةً غيره.
- قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: **﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾** [هود: ٢٤]، ما يستويان! ولا شكَّ أنه ثَمَّ فرق عظيم.
- قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: **﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** [الملك: ٢٢]، وهذا كثير جدًّا في القرآن، فإن الله -عَزَّ وَجَلَّ- يُقارن بين حال أهل الشرك وبين حال أهل التوحيد، وبين مَن يعبد غير الله -عَزَّ وَجَلَّ- ومَن يعبد الإله الواحد الأحد -سبحانه وتعالى.
- وبهذا يظهر فضل التوحيد، ففضل التوحيد عظيم جدًّا، ففيه الاستقرار النفسي، والرَّاحة النفسيَّة، والمطلوب من العبد معلومٌ وظاهرٌ، بينما هذا يتنازعه مطالب متعددة ممن يعتقد فيه الألوهية ويلتجئ إليه، وهكذا أصحاب القبور الذين يتمسَّحون بعتباتها، ويطوفون بها، ويطلبون من أصحابها المدد والعون، ويتركون مَن بيده الضر والنفع -سبحانه وتعالى- أليس هذا هو الضلال! ولكن كما قال تعالى: **﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** [يونس: ١٠١]، نسأل الله السلامة والعافية.

❑ **{قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة التاسعة والستون: من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه)}.**

- هذه القاعدة وردت في القرآن، وهي من القواعد التربوية التي اشتمل عليه كتاب "القواعد الحسان"، ولابدَّ للإنسان أن يعتقد هذه القاعدة اعتقادًا قلبيًّا، وأن يصبر على هذا الأمر، وأن يعلم أنَّه ما من شيءٍ تتركه لله

-عَزَّ وَجَلَّ- إلَّا والله يُعوّضك عنه خيرًا، وهذا الخير قد يكون شيئًا معنويًّا، وقد يكون شيئًا حسّيًّا، وما عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- في الآخرة خير وأبقى، فكنْ يا عبد الله -وطوني يا أمة الله- على هذه القاعدة من ذُكرٍ ومعرفةٍ ويقينٍ.

- والله -عَزَّ وَجَلَّ- قصَّ لنا أخبار هؤلاء الذين تركوا أشياء عظيمة لله -عَزَّ وَجَلَّ- كالمهاجرين الذين تركوا الأموال والأولاد وذهبوا إلى المدينة؛ فعوضهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالرزق الواسع في الدنيا وبالعز والتَّمكين، وهم ليسوا كلهم على ميزانٍ واحدٍ، ولكن فيه نماذج كعبد الرحمن بن عوف، فإنه كان من أغنى أهل المدينة، وعثمان -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- الذي جهَّزَ جيش العسرة، كذلك بلال الحبشي وما وقع عليه من الأذى الجسدي في مكَّة، ثم بعد ذلك عوَّضه الله -عَزَّ وَجَلَّ- بأن كان مؤذن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- وله الذكر الحسن والتَّرضِّي من إلى يوم القيامة من أهل الإيمان، مع أنه كان عبدًا مملوكًا، ولكن انظر ماذا عوَّضه الله -عَزَّ وَجَلَّ- وغيرهم.
- وإبراهيم الخليل -عليه صلوات ربي وسلامه- قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- عنه: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]، وهكذا الله -عَزَّ وَجَلَّ- يعوض أهل الإيمان خيرًا، فكل ما ترك ما تهواه نفسه من الشهوات واللذائذ لله -عَزَّ وَجَلَّ- فإن الله يُعوضه، وهذا العوض قد يكون شيئًا معنويًّا، وقد يكون شيئًا حسّيًّا، وما عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- في الآخرة أعظم، وهذا الذي ينبغي أن يكون مراد أهل الإيمان، وهو أنهم يحتسبون الأجر والثواب، لأن الدنيا ليست دار جزاء، وإنما دار امتحان، والنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- يخبر عن الله -عَزَّ وَجَلَّ- يقول: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولَا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ»[٥١].

◆ **السؤال السادس:**

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾

يحقق القاعدة:

من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه – الغاية تبرر الوسيلة - الأمورُ بمقاصدها

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (القاعدة السبعون: القرآن كفيل بمقاومة جميع المفسدين ولا يعصم من جميع الشرور إلا التمسكُ بأصوله وفروعه وتنفيذ شرائعه وأحكامه)}.

- هذه القاعدة يختم بها الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فيقول: (قد تقدم من الأدلة على هذا الأصل الكبير في دعوة القرآن إلى الإصلاح والصلاح)، وهذه قاعدة ينبغي للمسلم أن يترسَّمها وأن يعرفها غاية المعروف، فالقرآن كفيلٌ بمقاومة جميع المفسدين، ولا يُعصَم من جميع الشرور إلَّا مَن تمسَّكَ بأصوله وفروعه، وهذا القرآن إذا تمسَّكتَ به فإنَّه ستجد فيه العلاج لمشكلات الناس.
- يقول الشيخ: (ولكن نزيد هنا بعض التفصيلات، فنقول: أهل الشر والفساد نوعان:
- أحدهما المبطلون في عقائدهم وأديانهم ومذاهبهم الذين يدعون إليها، ففي القرآن من الاحتجاج على هؤلاء وإقامة الحجج والبراهين على فساد قولهم شيء كثير)، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ

---

[٥١] أخرجه البخاري (٣٢٤٤) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٤).

﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، منكرو البعث، مَن نسب لله -عَزَّ وَجَلَّ- الولد، مَن يدعو غير الله -عَزَّ وَجَلَّ- ؛ ستجد في القرآن من الحِجاجِ ما يُبطل ما هم عليه من هذا الاعتقاد الفاسد، والمطلوب من أهل الإيمان أن يترسَّموا القرآن، وأن يتعلموا ما فيه من الحجاج ليردُّوا به على أهل الباطل.

◆ **السؤال السابع:**

لم يَرُدُّ القرآن على أهل الباطل من منكري البعث بسبب ضعف حجتهم.

خطأ

- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(النوع الثاني: من المقومين للأديان والدنيا والسياسات).**
- الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ألَّفَ كتاب "القواعد الحسان" في وقت شاعت فيه الشيوعيَّة والماركسيَّة، والمطالبة بإلغاء الملكيَّة الفرديَّة، وبدعوى باطلة.
- ثم بيَّن الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أن الشيوعيون الذين انتشر شرهم وتفاقم أمرهم؛ في القرآن ما يردهم على أعقابهم، ففي زعمهم أنهم أنصار الفقراء، فلن تجد تشريعًا يُنصف الفقراء ويحمي الأغنياء مثل تعاليم القرآن؛ لأن الله -عَزَّ وَجَلَّ- شرع الزَّكاة، هذه الشريعة العظيمة التي فيها مصالح الناس، وفيها إعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه، وأن الله -عَزَّ وَجَلَّ- أحلَّ البيع وحرَّم الرِّبا، أمور كثيرة جدًّا ستجدها في التشريع الإسلامي.

◆ **السؤال الثامن:**

أعظم تشريع عمل على إنصاف الفقراء وحماية أموال الأغنياء هو تشريع ......

الشيوعية – الإلحاد – **الإسلام**

- ونقول: إن هذه الأفكار الوافدة الآن من الأفكار الإلحادية لأهل الباطل هي أفكار تدعو إلى إقصاء الدين عن حياة الناس، وجعل الدين في المسجد فقط، والدين ليس له علاقة في البيع ولا في الشراء ولا في التعاملات؛ كل هؤلاء كَذَبَة أهل باطل، لا يبنون دنيا ولا دين، وهم أسباب الفساد في الأرض، فيحتاج أهل الإيمان أن يردُّوا عليهم بالحجاج وبالجدال بالتي هي أحسن، وببيان ما هم فيه من التَّهافُت ومن التَّناقض، ومن مخالفة الفِطَر السليمة، ومن مخالفة الحق، وبأنَّهم غارقونَ فيما مادِّيَّاتهم ولا ينظرون إلى مسألة أن حياة الإنسان مركَّبة من روح وجسد، وأن الإمداد للجسد فقط لا يُحقق التوازن النفسي الذي هو من أسباب التعاسة التي يعيشها العالم من القلق والاكتئاب والأمراض العظام؛ لأن هذه الرَّوحانيَّات لا تجدها عندهم؛ لأنهم غارقون في ماديَّاتهم، مهما فعلوا فإن الإسلام يُحقق التوازن بين جوانب الروح وجوانب الجسد، فالإسلام هو دين الفطرة، يسوِّي بين الناس، يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، لن تجد التَّكافل الاجتماعي إلَّا في هذا الدين القويم الذي هو صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ.
- قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(وإذا تسرب هؤلاء الأشرار لتوسط الأخلاق الرذيلة وانحلال الآداب الجميلة ووجدوا مسلكًا في هذا الطريق يعينهم على تنفيذ باطلهم)**، يعني الدَّابة التي يركبونها هؤلاء الماديون الذين يُريدون إقصاء الدين عن الحياة، والذين يُريدون أن يشيعوا الإلحاد والكفر بالله -عَزَّ وَجَلَّ- شهوات؛ لأن

النفوس تريد هذه الشهوات، فطبع الإنسان أن يريد هذه الشهوات، يريد الانفلات عن القيم، يريد الانفلات عن أي شيء يحبس تصرفاته.

- ودائمًا نقول لأنفسنا ولإخواننا ولأبنائنا ولبناتنا: إن الحياة الطيبة لن تجدها إلا في الإيمان بالله -عَزَّ وَجَلَّ- قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]، وما يعرض لك من ضيق النفس ومن الوحشة؛ كل ذلك بسبب إغفالك لهذه الروحانيات، وهذا الإيمان الذي إذا عمر قلبكَ عشتَ هذه الحياة الطيبة.
- وهذا الإيمان لا يكون إلا بمجاهدة وبمصابرة وبالثبات، وبالظن بالله -عَزَّ وَجَلَّ- الخير، والصبر على هذا الطريق الذي لا تدري متى يحل عليك الأجل فيه وتنتهي رحلتك من الحياة، فلك عمر معدود، وهذا لا يكون إلا بأن نطلب ما عند الله -سبحانه وتعالى- ونسأل الله أن يوفقنا لذلك.

❑ {قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(القاعدة الواحدة السبعون: في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني)**}.

- ذكر الشيخ أمثلة لهذه القاعدة من كتاب الله، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، فهذه قاعدة، فإذا أنت عملت صالحًا فهذا لنفسك، وإذا عملت سيئًا فهذا لنفسك؛ لأنه لن يُجزَى أحد إلا بعمله، فلن تُحاسَب على أعمال الآخرين، وإنما تحاسب على عملك، فإن أنت عملت صالحًا فستجد هذا العمل الصالح، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، فأنت في سيرك إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- لابدَّ أن تدخر من الحسنات ومن الأعمال الصالحات، ومن الأعمال الزَّاكيَّات التي تنساها وتبقى في ميزانك، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالذين أحسنوا يجزيهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالحسنى، من عمل صالحًا، مَن آمنَ، مَن صبرَ على الطاعات وأَلِفَ عن هذا الحق ودافع عن هذا الحق، وبذل في سبيل هذا الحق، وصبر على ما فيه من العوائق؛ فله الحسنى عند الله -عَزَّ وَجَلَّ.
- وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- يجزي المحسنين، وأنت حينما تحسن ستجد هذا الإحسان، والله -عَزَّ وَجَلَّ- لا يظلم أحدًا.

✸ **ومن القواعد المُحكَّمة:** أن تعرف أنَّ أهل الفساد لا دوام لهم، وأن أصحاب الشر وأصحاب الباطل والذين يريدون أن يفرقوا بين أهل الإيمان بالقيل والقال وبالنَّمائم وبالدَّسائس والمكر والخديعة؛ فإنَّ مآلهم إلى أن يسقط هذا البنيان، لأن الله -عَزَّ وَجَلَّ- قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، فمهما عملوا من أعمال فإن الله سيأتي عليه بالدمار والوبال، وإن طال الزمان فمصيرهم إلى اضمحلال.

✸ **ومن القواعد المحكَّمة** قول الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- ربط التقوى بالاستطاعة، وليس معنى ذلك أن الإنسان يفعل جزءًا منا لعمل ويترك، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فتبذل غاية الوسع، فإذا انقطعت عن ذلك فانتَ اتَّقيتَ الله -عَزَّ

وَجَلَّ- على حسب استطاعتك، وفي حديث عمران بن حصين النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- يقول: «صَلِّ قَائِمًا، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»[٥٢]، فأحكام الإسلام مربوطة بالاستطاعة، وهكذا فيما أمر الله -عَزَّ وَجَلَّ- به من الواجبات، فانت تفعل ما يسعك أن تفعله من القدرة والإمكان.

- **ومن القواعد المحكَّمة** التي ينتفع بها الناس جميعًا ويجعلونها شعارًا لأهل الإيمان قوله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، فعداوة اليهود والنصارى باقية مهما فعل أهل الإيمان من ترضٍّ لهم ومن طلب رضاهم أو من موافقتهم، فإنهم لن يرضوا عن أهل الإيمان حتى يوافقوهم على الاعتقاد، مهما قدَّم أهل الإسلام من تنازلات وأشياء كثيرة فلن يرضوا، ولهذا قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]، فلا يزال هذا الاطراد وهذه المعركة قائمة، ولكن ينبغي لأهل الإيمان أن يجعلوا هذه القواعد موازين لهم يزنون بها علاقاتهم مع بعضهم البعض ومع الآخرين، فهي قواعد من عند الله -سبحانه وتعالى.

السؤال العاشر:

من القواعد المحكَّمة معرفة أنَّ عداوة اليهود والنصارى باقية مهما فعل وبذل أهل الإيمان.

صواب

- وهذا القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ؛ مَن تمسَّك به نجا، ومَن اعتصمَ بما فيه من القواعد تحقَّقَ له البُنيان، وتحقَّقَ له التَّمكين، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، فقواعد النصر موجودة في القرآن، وقواعد التَّمكين موجودة في القرآن؛ فعلى أهل الإيمان أن يأخذوا بهذا القرآن العظيم، وأن يتمسَّكوا به، وأن يتمسَّكوا بعقيدة أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- وبما جاء به محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- من الاعتقاد من القرآن وسنَّة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- وعمل الصحابة واعتقادهم، فلا نجاة لهذه الأمَّة ولا فلاح لها إلا بسنَّة المصطفى -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- كما قال الزهري -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: "السُّنَّة كسفينة نوح، مَن ركبها نجا، ومَن تخلَّف عنها غرق".

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



[٥٢] صحيح البخاري (١١١٧).